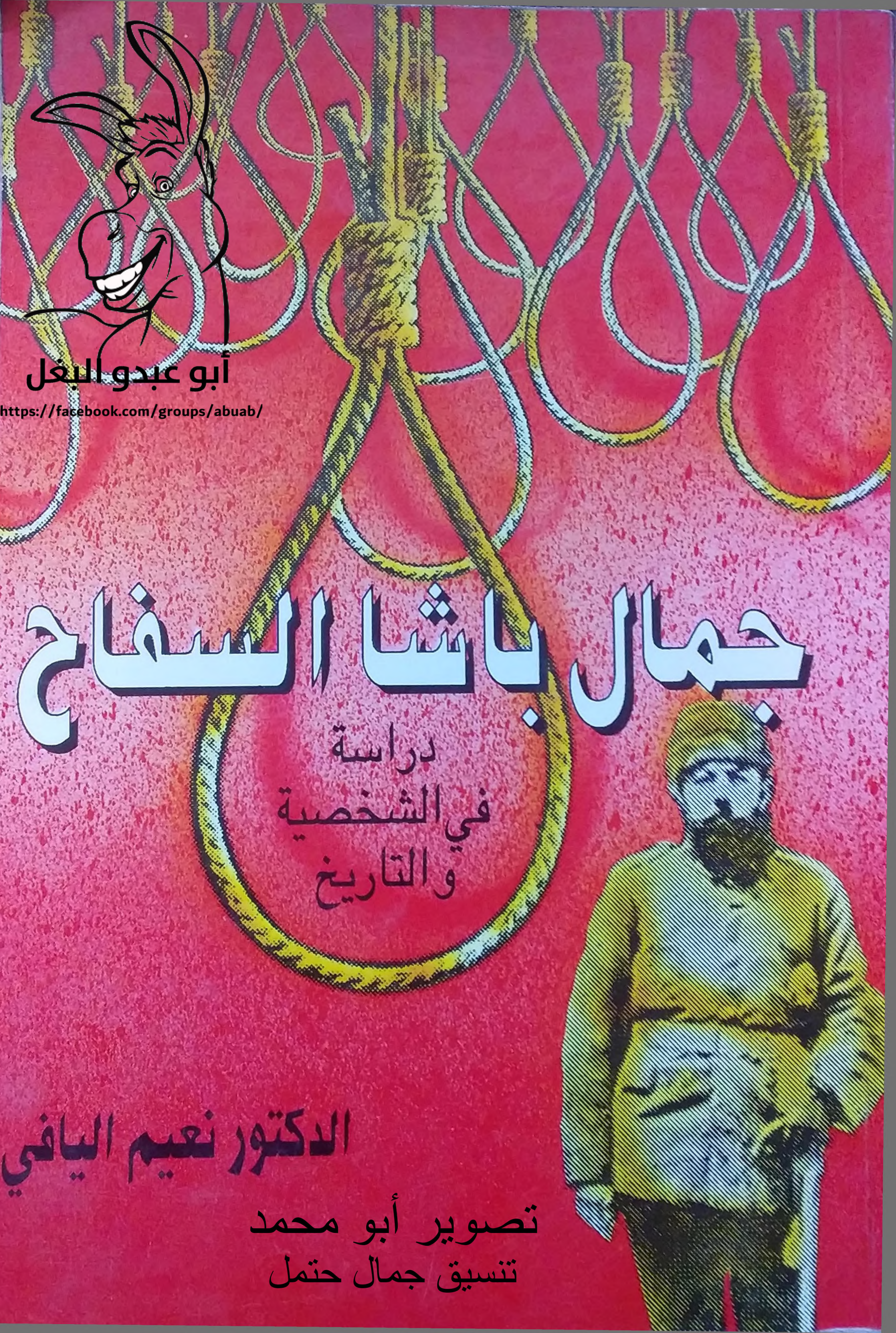


أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
جمال باشا السفاح
دراسة
في الشخصية
والتاريخ
الدكتور نعيم اليافي
تصوير أبو محمد
تنسيق جمال حتمل

جمال باشا السفاح

جمال باشا السفّاح

دراسة في الشخصية والتاريخ

* تأليف : د . نعيم اليافي .
* الطبعة الأولى 1993 / 2000 .

* الناشر : دار الحوار للنشر والتوزيع
اللاذقية ص . ب 1018 ـ هاتف 22339
تيلكس 451086 Booth – sy
سورية

تصميم الغلاف : الفنان ارداشيس هامبارتسوميان

الدكتور نعيم اليافي

جمال باشا السفاح

دراسة
في الشخصية
والتاريخ

مقدمــة

جمال باشا السفاح ، اسم على مسمى ، وصورة مرعبة ، لها في الضمير الإنساني عامة والضمير العربي خاصة بقايا مؤلمة وذكريات ، أذكر أوّل درس للتاريخ تلقيته في أعوام النشأة عن علاقة العرب بالترك : كانت أعواد المشانق التي نصبها للشهداء العرب المدافعين عن وجودهم وحق أمتهم في الحرية والاستقلال هي التي تتراءى في مخيلة الفتى اليافع بين السطور ، وكانت كلمات الرجال قبل إعدامهم عن الظلم والبغي ، عن الشرف والكرامة ، عن العرب والعروبة ، عن حب الوطن والموت في سبيله . هي التي تصرخ في القلب ، وترجّ الإحساس والشعور ، وكانت مزق الأجساد والضلوع ، والدم المراق ، وضحايا البؤس والجوع في الأزقة والطرقات ، والنساء والشيوخ والأطفال يعضون الحجارة ويسفون التراب هي اللوحات الخلفية التي رسمت للفترة الحرجة ـ الربع الأول من القرن ـ وللعلاقة بين الطورانيين والعرب ، وللشخصية ـ جمال باشا ـ ألوانها الجريحة التي لم تندمل ، وفضاءها الأسود الكتيم .

وتمر السنون ، وتكبر الصورة وتتسع ، فالنزعة العرقية الشوفينية المتعصبة لا يمكن أن تقهر شعباً دون شعب ، ولا تظلم أمة وتترك أخرى ، والسفاح الطاغية لا يمكن أن يعدم رجالاً ويدع آخرين ، أو يظلم فئة وتنجو من شروره وظلمه فئة ، وهكذا كان ، حاولت الطورانية التركية قهر الجميع

والاعتداء على كل القوميات والأقليات ، ناصبت العرب والأرمن والأكراد العداء . وتصدت لكل من نادى بحقه في أن يحيا حراً مستقلاً ، يتمتع بكرامته وشرفه . وجمال باشا السفاح لم يعلق على الأعواد أحرار العرب فحسب بل ساق إلى الموت كل الشرفاء من جميع القوميات ، وشارك في صنع المجازر والإبادة الجماعية لهؤلاء وهؤلاء ، والتقت الطورانية مع السفاح ـ وهو واحد من صانعيها وأحد دعاتها ـ لتطعن العرب والمسلمين في قضيتهم المقدسة التي ما نزال نعدها مركزية وكبرى ، فتعاونت مع اليهود على تأسيس مستوطناتهم ، وكانت من أوائل من مدّ إليهم يد العون لإنشاء وطنهم القومي في فلسطين . فهل علينا جناح نحن العرب أو الأرمن أو حتى الأكراد ألا نحمل للترك الطورانيين بعامة ولجمال وأنور وطلعت بخاصة غير الحقد والكره والعداء إلى أبد الآبدين ، ونطالب بتقديم القتلة إلى محاكم دولية ؟ لقد لاقينا جميعاً الأمرين من ظلمهم وطغيانهم وجبروتهم وتسلطهم ، أفلا يحق لنا ـ على الأقل الآن ـ أن نعبر عن شعورنا ازاءهم ، ونسجل آراءنا فيهم . ونفضح جرائمهم وخزيهم وعارهم ؟ !

حين فكرت بإصدار هذا الكتاب عن جمال باشا السفاح بمشاركة بعض الرفاق وضعت في ذهني أمرين : أولهما أن أعيد قراءة ما كتب عن الفترة وعن العلاقة ما بين الأتراك وسائر القوميات وعن الرجل قراءة موضوعية ليس بصفتي العربية فحسب بل بصفتي الإنسانية أيضاً ، والباحث الإنسان يتجرد إلى هذه الدرجة أو تلك ـ أو هكذا يجب ـ عن عواطفه الذاتية ليرى الأطروحة بصورة أفضل وأكثر حيدة . وثانيهما أن أتخذ من جمال باشا السفاح نموذجاً لسبر مكونات الطاغية ، ومعرفة الدوافع التي تصوغ فعاله ، والوقوف عند الآفاق التي يتملاها ويفكر فيها ، وبكلمة

مختصرة الوقوف عند آلية ذهنه وكيف يعمل ، فإلامَ انتهيتُ . . ؟!

فيما يتصل بالفترة والعلاقة يهمني منها النزعة الطورانية التي آمنت بالامتياز العرقي وصفائه وتفوقه ، وبذلت جهدها حتى تترِّك القوميات المنضوية تحت لوائها جميعاً ، وقد رأيت أن أية نزعة مثل هذه النزعة ـ سابقاً وحاضراً ومستقبلاً ـ لا يمكن أن تمت إلى الإنسانية بصلة ، وأن كلّ قومية أو أمة مهما كانت إنما هي جزء من المجموعة البشرية ، وعليها أن تنظر إلى خصوصيتها وثقافتها من خلال علاقتها بهذه المجموعة ، وحين ترقى عليها ، أو تستبد بها ، أو تراها من منظور دمها الخاص وأرومتها المتفردة وشرعيتها التي لا شرعية سواها ستنتهي لا محالة إلى مزابل التاريخ ، هكذا انتهت الطورانية ، وانتهت النازية والفاشية ، وما يتراءى هنا وهناك من تجليات تظهر بين الفينة والأخرى إنما هي زماعة روح تحتضر أكثر منها تعبيراً عن قوة لها أو عودة ، وستنتهي مثلها ـ شاءت أم أبت ـ الصهيونية العنصرية ، وكلّ دعوة تشبهها ، أو تحذو حذوها ، لسبب بسيط هو أنها دعوة ضد الإنسان .

أما فيما يتصل بالطغيان والطاغية فقد انتهيت إلى أنّ أسطورة الحاكم المستبد لا تقوم إلا إذا توفرت ثلاثة عوامل أو مكوّنات : المكون الخاص للشخصية والمكون العام للظرف وللعصر ، والمكوّن المحيط أو ما أسميه بفئة الأعوان أو الأخطبوط . كان جمال باشا السفاح طاغية في جبلته ، غداراً في طبعه ، سفاك دماء في أصول تركيبته الفيزيولوجية والنفسية . بيد أنّ هذه الاستعدادات لا تظهر إلا إذا صادفت التربة الخصبة ـ البيئة ـ التي تحتضنها وتنميها ، وقد هيئت له كل الظروف والأحوال حتى تورق شجرة ظلمه وتثمر ، نُشّيء على العسكرية القاسية ، ووليّ شتى الولايات ، وأسندت إليه

مسؤوليات مختلفة أتاحت له التسلط والاستكبار والتجبر ، ثم جاء المكوّن الثالث حيث أحيط الرجل بطبقة من الأعوان ـ شأن معظم الحكام المستبدين ـ يزينون له الظلم ، ويحببون إليه الشر والسفه والطغيان ، وينشدون بين يديه ، ويطنبون آيات الولاء والعظمة والثناء ، ويحثونه أكثر فأكثر على أن يحزم أمره ويطغى دون رقيب ولا حسيب .

وتصالحت المكونات الثلاثة لتجعل من الرجل ـ الظاهرة ـ انموذجاً فذاً للمجنون بداء العظمة ، والمريض بحبّ السلطة ، وللمدنف بالقتل وإراقة الدماء . قتل القريب والبعيد ، الصديق والعدو ، كان يقول ما لا يفعل ، ويفعل ما يضمر ، ويتصرف برقاب الناس أفراداً وجماعات ، شعوباً وقوميات ، وكأنّه مالكها ، ومن حقه ساعة يشاء أن يذبحها ذبح الكلاب والنعاج .

وانتهى الطاغية ـ كما يجب أن ينتهي كل قاتل مجرم ـ عاجلاً أو آجلاً ، انتهى ببضع رصاصات سددتها يد طاهرة لتنتقم للعرب وللأرمن ولكل الأبرياء والأيامى واليتامى الذين خلفهم حكمه الظالم البغيض .
بوركت اليد المقدسة التي امتدت لتقتل السفاح ، وبوركت كل يد تمتد إلى كل طاغية جبار قاتل وظالم في كل عصر وزمان .

حلب في الأول من تشرين الأوّل 1992 .

نعيم اليافي

مدخل

قد يتساءل القارىء عن الدوافع التي تحدو بنا لدراسة شخصية أحمد جمال باشا ، وربّما ارتكز تساؤله على مسائل أساسية تتعلّق أوّلاً بطبيعة التحليل المتناول لهذه الشخصية ، وثانياً بمنظوراته التاريخية والسياسية ، وثالثاً بمدى ارتباطها بواقع الدولة العثمانية عشية الحرب العالمية الأولى ، وإرهاصات الثورة العربية الكبرى . وللإجابة على تساؤلات كهذه يجدر بنا أن نوضّح مجموعة نقاط ندرجها فيما يأتي :

أولاً : لا تكتسب دراسة أية شخصية سياسية أو عسكرية أهمّيتها إلاّ من خلال موقع هذه الشخصية في الحركة الاجتماعية للبلد الذي نشأت فيه ، وفي إطار الموقف الدولي العام وما يتفرّع عنه من علاقات . وليس الموقع وحده هو الذي يحدّد أهميتها ، بل الأثر الفاعل الذي تمارسه في الميدانين المشار إليهما . ولعلّه من أجل ذلك ينصبّ اهتمام المؤرخين ، وسائر الدارسين ، على ملاحقة مسارات حياة كبار السياسيين ، والعسكريين ، والمفكّرين ممّن حوّلوا مجرى التاريخ كلياً أو جزئياً ، سلباً أو إيجاباً . وهكذا ترعرع فنّ كتابة « السيرة » في أحضان العالم القديم بدءاً من عهد الفراعنة ، ومروراً بحمورابي ، وآشور بانيبال ، وانتهاء بما كتبه هيرودوتس عن الاسكندر المقدوني ، والحكماء السبعة ، وملوك أسبارطة وأثينا . حتى أنّ اعتقاداً ساد آنذاك مفاده أنّ التاريخ هو تسجيل لحيوات من يصنعون أحداثه

من العظماء ـ وكان العظماء على الأغلب ـ ملوكاً وقادة حروب . على أنّ كتابة السيرة « البيوغرافيا » لم تبق في كنف التاريخ وحده ، بل تشعّبت بها السّبل ، ولا سيّما في أواخر القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، لتتداخل مع فن الأدب ، والفنون الأخرى وفق ما نعرفه اليوم في « الريبورتاج » الصحفي أو التلفزيوني . وإذا أضفنا أهمية ما تكتسبه ، في عصرنا هذا ، المذكّرات التي يكتبها كبار العسكريين والسياسيين بأنفسهم ، مما يعرف بـ « الأوتوبيوغرافيا » تبيّن لنا مدى اتساع هذا المجال ، وغناه في رفد البحث عن الحقيقة التاريخية ، أو على الأقل ، في إضاءة جوانب منها قد لا تتسنّى لنا معرفتها في غياب مثل هذه الوثائق .

ثانياً : ومع أنّ البيوغرافيا تغدو اليوم فرعاً مستقلاً لأصل تاريخي ضارب في القدم ، فهي عرضة لمحاذير عديدة تجعل من مصداقيتها أمراً التباسياً ، وتدفع بالباحث إلى استقاء المعلومات من مصادر أخرى قد تؤيّد ما هو مسجّل في « السيرة » ، وقد يتناقض معه . وتلكم هي الحال في سيرة أحمد جمال باشا التي سجلها ، أو ذكر بعضاً منها ، أكثر معاصر لفترة وجوده في سورية بين عامي 1914 ـ 1917 . وقام هو نفسه بكتابة سيرته الذاتية ليدافع من خلالها عن الجرائم التي ارتكبها بحق القادة الوطنيين الذين علّقهم على أعواد المشانق في سورية ولبنان ، وتظهر المقارنة المحايدة لمذكرات الباشا السفّاح مع حقيقة ما جرى ، انه اخترع أسباباً واهية وصلت إلى حدّ التزوير كي يسوّغ أفعاله . لهذا نجد أنّ كبرى الغايات التي نتوخاها في هذه الدراسة هي وضع البنان على حقيقة هذا الرجل ، وذلك بالنظر فيما كتبه هو ، وما كتبه باحثون آخرون ، أو رجال وطنيون عرفوا بنزاهة أحكامهم ، وشرف تعاطيهم مع التاريخ ، وفي آخر ما نطق به زعماء

أحزاب العرب وجمعياتهم قبل تنفيذ حكم الإعدام بهم . وعبر التمحيص في ذلك كله يتجلى للقارىء أنّ هذه الدراسة تنتمي إلى فرع التاريخ السياسي للدولة العثمانية في أواخر أيّامها وهي تحتضر تحت ضربات الحلفاء والثورة العربية ، وتحديداً في أثناء الفترة التي حكم فيها أحمد جمال باشا بلاد الشام إذ كان قائداً للجيش العثماني الرابع المرابض فيها .

ثالثاً : وعلى الرغم من أنّ أحمد جمال باشا يمثّل ، بالإضافة إلى طلعت باشا ، وأنور باشا ، الزعامة الطورانية الثلاثية لحزب « الاتحاد والترقي » فهو ليس في الاعتبارات السياسية أو العسكرية صاحب نهج فكري واضح ، ولم يكن لا هو ولا شريكاه ، مبّرزاً في خططه الحربية ، أو في مشروعاته السياسية . وإذا كان (ليدل هارت) قد طبع المدرسة الانكليزية العسكرية بطابع نبوغه في رسم خطط المعارك وكيفية تنفيذها ، كما طبع (الجنرال فوش) المدرسة الفرنسية ، و (كلاوز فيتز) المدرسة الألمانية ، وسوخاروف المدرسة الروسية ، فنحن لن نكون إلاّ مجحفين بحق التاريخ لو قارنّا أحمد جمال باشا بواحد من هؤلاء الأفذاذ ؛ لا لشيء سوى لأنّه كان يجهد ـ كزميليه طلعت وأنور ـ لتنفيذ ما يمليه عليه الضباط الأجانب الذين كانوا يسيطرون على مقدرات الجيش العثماني ، والألمان بوجه خاص . وهو ، وإن كان يبدي بغضه السافر للألمان ، فلم يكن يخفي إعجابه الشديد بالفرنسيين . وقد حاول أن يبرم مع الحكومة الفرنسية معاهدة يترجم فيها هذا الإعجاب ، ويتجنّب الألمان ، غير أن فرنسة اشترطت عليه أن تستعمر سوريا ، فعاد خائباً لينضوي تحت جناح محراك الحكومة العثمانية ، وهو أنور باشا الذي كان يتفاوض سرياً مع ألمانيا . وهذا يعني أنّ قيادة الاتحاد والترقي كانت ـ كما سوف نرى ـ بعيدة البعد كلّه عن النبوغ في السياسة والحرب ،

ولا يستطيع المتأمّل أن يرى في القائمين عليها سوى شخصيات تابعة ينعدم فعلها البعيد المدى ، ويتعمّق تأثيرها في المحيط القريب تعسّفاً وقتلاً وإرهاباً . ثم أنّنا ـ في حال دراسة شخصية أحمد جمال باشا بصفته قائداً سياسياً ـ على اعتبار أنّ بعض الدارسين قالوا إنه رجل سياسة أكثر منه رجل حرب ـ جاء في فترة عصيبة لفّت دولة آل عثمان في بدايات القرن العشرين ، فسنكون مضطرين لتعديل مفهوم « القيادة السياسية ـ العسكرية » حينما نتذكّر القادة الكبار أمثال (روميل) المشهور بقوّة حجته ، وبسيطرته في مذكّراته على اللغة ، ودقّته في وصف المعارك حتى قال عنه (ليدل هارت) : « كان روميل ربّ السيف والقلم ، ولم ير التاريخ قبله قائداً سجّل وقائعه وفتوحاته بمثل تلك القوة والحيوية » ، وأمثال المارشال (مونتجومري) منقذ الامبراطورية البريطانية من الهزيمة المحقّقة ، و (تشرشل) المؤلّف العظيم والخطيب الأريب الذي قال لأعضاء مجلس العموم وقت استلامه منصب رئاسة الوزراء البريطانية عام 1940 « ليس لدي ما أمنحه إلا الدم والعرق والدموع » . وأين هو من (ايدن) ، و (ترومان) ، و (ستالين) ، و (مالينكوف) وغيرهم . ونحن لا نقوّم هنا ـ بطبيعة الحال ـ إلا القدرات الذاتية لهؤلاء القادة ، دون النظر إلى الجوانب السلبية والتفكير الاستعماري لكثيرين منهم . ثمّ أنّ ما يهمّنا أن نقدم شخصية أحمد جمال باشا في الصورة الأقرب إلى الحقيقة ، مبتعدين عن تطرّف الأحكام ، أو تبسيطها الذي لن يفضي بنا إلى الموضوعية المرومة . وهنا تتداخل عوامل كثيرة تجعل من اعتماد معايير التمحيص والتقويم قضية معقّدة تتصل بما هو عام جداً في حياة الشخصية ، وبما هو خاص جداً . فكيف إذا كانت الشخصية تمثّل حكومة دولة يرتبط مصير مجموعة شعوب بمصيرها ، حيث يمكن أن يصير موقف هذه الشخصية محدّداً لانطلاق

الشعوب التابعة للدولة ، أو حاكماً عليها بالموت والتعذيب على غرار ما فعله طلعت باشا بالأرمن ، وما فعله أحمد جمال باشا بالأرمن وبالعرب واليونانيين أيضاً ؟!

وستغدو القضية أكثر تعقيداً حينما تبسط على مجمل العلاقات الدولية العامة من جهة ، والميدان السياسي الممتد من سنة 1878 إلى سنة 1908 وهي فترة حكم السلطان الاستبدادي عبد الحميد من جهة ثانية . ذلك أنّ ما كانت جمعية « تركية الفتاة » تعمل من أجله منذ عام 1889 ، وهو ترسيخ الدستور بعد استعادته بخلع عبد الحميد ، لم يكن أمراً خاصاً بالحكومة العثمانية ، ولا بأرباب « تركية الفتاة » . وما كان يحدث في تركية في تلك الفترة ، كان يجد صداه في أوروبة المتربّصة بالامبراطورية العثمانية ، وفي الأصقاع التابعة للعثمانيين كالبلدان العربية ، وأرمينية ، والبلقان ، واليونان ، وغيرها ؛ فشعوب هذه المناطق كانت تحلم بشيء من الاستقلال الذي توفّره لها « اللامركزية » ، وقد قامت ثورة الاتحاديين باسم « اللامركزية » والرابطة العثمانية . ولكن الآمال كلّها تبدّدت بظهور نزعة معادية لهذه الرابطة ، وساعية بكلٍّ ما لديها لإقامة « الطورانية » ، وإرغام غير الأتراك على الانصهار فيها . وكان جمال باشا ـ كما سنرى ـ واحداً من أكثر الداعين إلى تتريك العناصر ، أو تغريبهم ليحلّ محلّهم الأتراك الخُلَّص . إذاً دراسة شخصية هذا الباشا لا يمكن أن تكون مجدية بمعزل عن هذه الدوائر المتشابكة التي يحكمها قانون شامل واحد هو قانون « بزوغ التيار القومي الذي ساهم في تفكيك الامبراطوريات في نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين » ، وظهرت بوادر التفكّك في ميادين الحياة الداخلية للامبراطورية العثمانية كلّها ، وكان أخطرها « الفوضى المسيطرة على

الجيش » الذي تحوّل من قوة تحمي السلطنة وتجعلها مهيبة الجانب ، إلى أداة في أيدي المتنفذين لاضطهاد الشعب ، وابتزازه ولإشادة الأمجاد الشخصية .

رابعاً : ولمّا كان أحمد جمال باشا من المتحمّسين لفكرة « الجامعة الطورانية » التي يلوّح بعض الدارسين بأنّها ذات صلات وثيقة بالصهيونية العالمية ، فسنعمد إلى بيان الأواصر التي تقوم بين الخلفية العامة التي كانت تدير سياسة أحمد جمال باشا ، وما فعله ضدّ الوطنيين العرب خاصة ، وغير العرب عامّة . كما أنّنا سنتعرّض لما نشرته بعض الصحف عن اتصالات سرية قامت بينه وبين « اليهود » الساعين ، في أثناء الحرب العالمية الأولى ، لتهجير أبناء جنسهم إلى فلسطين التي كانت مشمولة بحكمه ، وكان فيها جزء هام من الجيش العثماني الرابع الذي كان يتولى قيادته . وبهذه الطريقة قد نتمكن من إثبات ما للرجل وما عليه من هذه الناحية ، ولا سيّما أنّ الاتحاديين عامة ، والسلطان عبد الحميد من قبله وضعوا من موقفهم من أطماع اليهود في الأراضي المقدّسة معياراً لصحة نواياهم تجاه المسلمين والعرب ، ولشرفهم السلطوي . وسنرى لاحقاً أنّ السلطان عبد الحميد الثاني اتهم جماعة « الاتحاد والترقّي » بأنهم ما كانوا ليخلعوه عن العرش لو قَبِلَ بالتنازل عن فلسطين لليهود ، أو على الأقل بالاستجابة لمطالب صديقه « هرتزل » .

إذاً ، لتحقيق القدْر الأكبر من الإحاطة بهذه الفترة من تاريخ أمتنا العربية ، وتاريخ حركة العلاقات الدولية عشية الثورة العربية الكبرى ، سيكون لزاماً علينا أن نلاحقَ تعرّجاتِ دراستنا من العام إلى الخاص ، ومن الخاص إلى العام ، فمزاعم جمعية « الاتحاد والترقّي » في إرساء دعائم

« الدستور » والتي كانت واجهة لسياسة التتريك ، ليست ، في المنظور التاريخي ، منفصلة عن تموجات السياسة العالمية التي كانت تديرها وقتذاك الدول الاستعمارية العظمى ، وخاصة فرنسا وانكلترا في مواجهتهما للخطر الألماني الزاحف باتجاه الشرق ، والمعتمد على الامبراطورية العثمانية ببعدها الديني - الاسلامي الذي يعطي الحرب صبغة المواجهة بين المسلمين والمسيحيين الأوروبيين ، فيقلص نفوذ الحلفاء ، ويفتح الطريق واسعة أمام مطامع ألمانية ، لكنّ التناقض بين هذه المساعي ، وسياسة التتريك دفع بالأحداث في اتجاه آخر ، ربّما كان الاتحاديون يحسبون حسابه ، وربما ألهاهم اعتمادهم على قوّة ألمانية عن تقديره حق قدره . فباءت المساعي النفعية لجمال باشا في اجتذاب الشريف حسين إلى صف تركية وألمانية في الحرب العالمية الأولى . وقد أدرك الألمان أن السيطرة المطلقة التي سار عليها جمال باشا في سورية قد جعلت الشعب السوري ينفر من الترك والألمان معاً .

فلو عدنا إلى الوراء قليلاً ، إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لساغ لنا أن ندرج ضمن اعتباراتنا المسألة الآتية : هل كان الهدف الأساسي لحركة النهضة العربية التي قامت أصلاً لتنطلق من سبات العرب الذي فرضته عليهم الدولة العثمانية على مدى أربعة قرون ، وتبعث ماضيهم ، وتحيي تاريخهم الساكن إلى حين ، نقول : هل كان الهدف الأساسي لهذه الحركة النهضوية أن تتصالح مع الأتراك ضمن واقع يساهم في إصلاحه « عهد دستوري » كان السلطان عبد الحميد قد عطّله لمدة ثلاثين سنة ، أم أن جوهر نضالها يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ؟ وبعبارات أخرى : هل جاء جمال باشا ليضع الصورة الواضحة لنوايا الأتراك أمام رجال التحرر العربي ، ويجعلهم يدركون أنه لا مناص من الثورة على

واقعهم المتردي ، أم أن ظلم جمال باشا هو سبب الثورة الأوحد ؟

صحيح أن العرب كانوا واقعين ، قبل بداية ثورتهم ، بين نارين : نار الاتحاديين الذين كشّروا عن أنيابهم العنصرية التي وصلت بهم إلى حدّ تكفير غير الأتراك من المسلمين ، ونار الدول الأوروبية المتكالبة على بلادهم منذ حملة نابليون بونابرت على مصر حتى الحرب العالمية الأولى . ولكنّ الخارطة السياسية التي قامت من أجل تعديلها حرب عظمى ، تركّزت منذ عام 1916 على تقسيم أملاك الدولة العثمانية في البلاد العربية بين فرنسة وانكلترا ، ولا نستبعد أن يكون الاتحاديون على دراية بذلك ، مما يقزّم مزاعم واحد مثل جمال باشا في حماية بلاد الشام ، والسعي لإقامة المساواة فيها . وسنرى أن الحرب التي خاضها في بلادنا كانت حرباً لمجده الشخصي ، ولما لم تساهم هذه الحرب إلا في خذلانه ، حوّلها لتصير حرباً ضد « العروبة » والحرية العربية .

ونودّ أن نشير في ختام هذا المدخل : إلى أن المراجع التي تحيط بهذه الفترة من التاريخ ، قلما تتحدث عن شخصية أحمد جمال باشا ، ويعود ذلك ـ على ما يتراءى لنا ـ إلى دمج شخصيته بإطار برنامج جمعية « الاتحاد والترقي » القائمة على العنف والتقتيل في سبيل « تتريك العناصر » . أما ما كتبه الباشا بنفسه ، فسيكون موضوع مناقشة أخرى تتعلّق بمدى إخلاصه للحقيقة ، وبكيفية التفافه من حولها ليبرىء نفسه . ولم نجد فيما كتبه جمال باشا الصغير الذي عيّن مساعداً للباشا الكبير ، سوى أوصاف لمعارك حربية ، وإثبات لبعض البرقيات المتبادلة بين قيادة الجيش الرابع والآستانة . لذلك سنجهد لاستنباط صفاته الشخصية من الأحداث التاريخية ، ومن شهادات بعض رجال السياسة ، والحرب في تلك الفترة .

- 1 -

الإطار التاريخي ، والظرف الخاص

ولد أحمد جمال باشا سنة 1872 في ميتيلينا باليونان (وتقول مصادر أخرى في استانبول) التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية . وليس ثمة من مصدر تاريخي أو غيره يحكي شيئاً عن طفولته ، وعن كيفية تعلّمه ، وانتسابه إلى الجيش . وهذا ما يحول حياته ، بين سنة الولادة ، وسنة 1908 حيث شارك في الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ، إلى فترة انقطاع لا سبيل إلى توثيقها أو معرفة تفاصيلها . بيد أنّ ذلك قليل الأهمية إذا قدّرنا أنّ الدور الفاعل لهذا الرجل بدأ فعلياً منذ وصوله إلى السلطة . وقد لعبت جملة من العوامل دورها في ذلك ، ممّا يدعونا إلى وضع حياته في إطار تاريخي عام ، ومن ثمّ ننتقل إلى الأحوال الخاصة التي أحاطت بها . وعلّة هذا المنهج تقوم على أساس اعتقادنا أنّ المحيط يفعل فعلاً حاسماً في تكوّن الشخصية ، وفي تميّزها ، وتطوّرها وحتى في سلوكها . والفرد ، مهما كان نابغاً وذا خصوصية ذاتية ، لا يمكن أن ينمو خارج العلاقات البشرية في المجتمع الذي يوجد فيه . إذاً ما العلاقة بين الواقع التاريخي ـ الاجتماعي في الامبراطورية العثمانية أواخر القرن التاسع عشر ، والحياة الخاصة لأحمد جمال باشا ؟!

جاءت ولادة جمال باشا في فترة حكم السلطان عبد العزيز الذي اعتلى عرش السلطنة عام 1861 ، وكان هذا السلطان أعمى البصر والبصيرة في

شؤون الإدارة ، والسياسة ، ولذلك انصرف إلى إشباع ملذّاته الخاصّة مسخّراً أموال الدولة ، وإمكاناتها في هذا السبيل تاركاً للقدر أن يتصرّف بوجهة الحياة كما يشاء . ولم ينتج عن الاستهتار والتبذير سوى جو الانتهازية والتبذّل ، إذ راح كبار الوزراء والموظفين غير الأمناء يعيثون في الدولة فساداً ، ولا يحسبون أي حساب لصرخات الولايات التابعة للعثمانيين ، ولا سيّما في أوروبة . فضاق الناس ذرعاً ، وهبّوا في وجه الحكومة يطالبون بحقوقهم في كل الأماكن . وكان ردّ الحكومة العثمانية قمعاً عنيفاً بوساطة الجيش كما حدث في المناطق الأرمنية التي كانت تطالب بإجراء الاصلاحات ، فاعتبر السلطان أنّ المطالبة التي قدّمتها البطريركية الأرمنية في القسطنطينية ، تجسيد لعصيان وخروج عن الطاعة ، وبناء على ذلك سيّر إلى منطقة « زيتون » الأرمنية حملة لتأديبهم بلغ عدد أفرادها 50,000 ألفاً . ولم يتراجع عن قراره إلا بتدخل نابليون الثالث . وأجبر قمع الثورة البلغارية العنيف (جلادستون) على التهجّم على فساد الحكم العثماني ، وتنديده بمساوئه . ومنذ تلك الفترة بدأت القضية الشرقية تحفر مساربها متيحة المجال أمام الدول الأوروبية للتدخّل المشروع أو غير المشروع في شؤون العثمانيين . كما عرفت مسألة سياسية كان لها دورها أيضاً في أطماع الدول العظمى بأملاك الدولة العثمانية ، وهي مسألة « الإصلاحات » التي أثارت حفيظة السلطان عبد الحميد الثاني ، وعمّقت في طغيانه ، وفتكه برعايا العثمانيين من الأرمن . وفي الجزيرة العربية علا التذمّر والسخط على سياسة الفحش والظلم التي يسومها السلطان عبد العزيز ،ولكنّ نوايا الثورة على حكمه ، وعلى النظام العثماني برمّته كانت لا تزال مستورة ، ولم تظهر علناً إلا في عهد السلطان عبد الحميد الثاني . فما المتغيّرات التي حملها هذا السلطان ، وكيف انعكست على الصعيدين الداخلي والخارجي ؟

كان لا بدّ لعبد الحميد من التظاهر بأنه مع الدستور الأساسي لنظام الحكم العثماني ، وذلك كي يمتص النقمة المتراكمة في عهود من سبقوه من السلاطين ؛ لهذا سارع إلى تعيين مدحت باشا المشهور بإخلاصه وحسن إدارته صدراً أعظم ، واجتذب إليه الأعيان ليكسب ثقتهم ، وليمثل الصورة التي كان قد اشتهر بها على أنه « أمير ورع ، حرّ الفكر ، يحبّ التقدّم والتجديد » . ومع إعلان الدستور سنة 1876 الذي أشعل مشاعر الفرح عند رعاياه ، فوّت الفرصة على المؤتمر الأوروبي الذي اجتمع اجتماعاً عاماً لوضع المقترحات التي تكفل إصلاح الحكم في الامبراطورية العثمانية . كما ضمن جانب الرعايا الذين أحسنوا به الظن ، ولم يستطيعوا كشف نواياه الحقيقية .

أما العقبة الأساسية في وجهه ، فقد كان مدحت باشا الذي تمادى في إعطاء الدستور أهميته للحدّ من سلطة السلطان المطلقة ، وللمساواة في المعاملة بين الأجناس العديدة التي تنضوي تحت الراية العثمانية . إضافة إلى أنّ الصدر الأعظم كان يدرك أسباب ضعف الدولة ، ويجملها في اثنين : الأول هو الوعي القومي ، والثاني فساد الحكم المتمخّض عن طغيان السلاطين . وهذه حقائق لم يراعها السلطان عبد الحميد إلا لأنّ الظروف ألزمته بذلك ، أما وقد زالت هذه الظروف ، فمن اللازم أن يزول الدستور ومن قام بوضعه ومحاولة تنفيذه . وهكذا أصدر قراره بعزل مدحت باشا ونفيه إلى أوروبة ، وقراراً آخر بتعطيل الدستور بحجة أنّ روسية أعلنت الحرب عليه . وكانت نتيجة الحرب الروسية دليلاً فاضحاً على انحلال الجيش العثماني ، وضعف قياداته ، إذ أن الروس وصلوا إلى مشارف القسطنطينية ، ولولا تدخل بريطانية لألزموا السلطان عبد الحميد بشروط

كافية لإنهاء دولته ، لكنّ استبدال معاهدة سان ستيفانو بمؤتمر برلين عدّل الوضع لصالحه . وانكشف له على أثر ذلك أمران :

الأول هو أنه سلطان دولة ضعيفة على وشك الانهيار ؛ ولا سيما أنّ الدول الأوروبية تشرع في نهش أجزائها الواحد بعد الآخر ، ففرنسة نهشت الجزائر وتونس ، وبريطانيا نهشت مصر ، وتحاول روسية أن تنهش ما وراء القفقاس . إذاً كيما تستمر الدولة العثمانية ، ينبغي أن تستفيد من تناحر الدول الأوروبية فيما بينها . وهذا ما جهد السلطان عبد الحميد لاستغلاله ، واستغلّه بنجاح .

والأمر الثاني داخلي محض ، يخص مركزه باعتباره سلطاناً مطلقاً يجدر به أن يكون ضارب الجذور في كيان العرش السلطاني ؛ فلا مناص إذاً من اعتماد الحيلة والبطش بجميع من تسوّل له نفسه أن يشق له عصا الانصياع . لذا أقام حكمه « على التجسّس والاضطهاد ، فنشأ بذلك نظام أصبح فيه الجواسيس ، الذين استخدمهم السلطان لتحقيق أهدافه السياسية ، يؤلّفون طبقة حاكمة قوية من الأوباش الفاسدين ، فلم يسلم أحد من أذاهم » . وشمل الاضطهاد الحميدي الشعوب البلقانية ، والبلدان العربية ، والشعب الأرمني بصورة خاصة . وقد اشتهر عن السلطان عبد الحميد أنه كان يرى في الأرمن « بلغاريا ثانية ويجب أن يزالوا من الوجود » . وكانت أداة التنفيذ في يده هي الفرق الحميدية المعروفة باسم « الأيلري » ، المخصصة - على حدّ زعمه - لتأديب العصاة ، وقمع « حركات التمرد » القائمة في البلقان والأصقاع الأرمنية . وغني عن القول أنّ الأتراك أنفسهم رزحوا تحت نير الطغيان الحميدي ، وعانوا ما عانوه ، ولم تقعد بهم عزائمهم عن بذل ما في وسعهم لمقاومته في السرّ والعلانية داخل

تركية وخارجها . وهذا ما حملت لواءه جمعية « تركية الفتاة » ، ساعية لإعادة الدستور ، وإقامة المساواة بين شعوب السلطنة المختلفة . وكان من الطبيعي أن تلاقي هذه الجمعية استجابة كاملة من متنوّري هذه الشعوب ، ولا سيّما بعد أن اتضح لهم أنّ ما حاول السلطان عبد الحميد أن يحققه من الدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » ، وما تظاهر به من أنه خليفة مسلم قبل أن يكون سلطاناً ، لم يكن ، في حقيقته ، سوى أسلوب من أساليب تعزيز نفوذه ، وترسيخ نظامه .

بدأت « تركية الفتاة » بالعمل عام 1889 ، وذلك في المدرسة الطبية العسكرية ، وانتهت منه باستعادة الدستور سنة 1908 ، وخلع الدستور سنة 1908 ، وخلع السلطان عبد الحميد عام 1909 . وهذه الجمعية تفرّعت في الأصل عن حزب « الاتحاد والترقي » ، ثم اتحدت معه ، ومهّدت لمؤتمر أحرار العثمانيين الذي انعقد في العاصمة الفرنسية باريس سنة 1902 . وعقب المؤتمر الذي شارك فيه مندوبون عرب ، وأكراد ، وأرمن كشف أحمد رضا عن مساعي تيار لا يؤمن بما هدف إليه الأرمن لتشكيل حكومة محلية مستقلة عن الإدارة المركزية ، إنما يدعو بحميّة لتشكيل سلطة مركزية تركية صرف ، تستلم السلطات كلها . صحيح أنّ تيار أحمد رضا كان يمثّل أقلية أمام ما يمثّله الأمير صباح الدين بن الداماد محمود باشا الذي هرب إلى باريس ، وبعث منها برسالة إلى السلطان « صاغها بلهجة شديدة ، وهاجمه فيها هجوماً عنيفاً ، كشف فيه عن جميع مساوئه ، وعن الأعمال المخزية التي يرتكبها بحق شعبه » ، ولكن مسار النضال ضد الاستبداد الحميدي بيّت الدعوة الطورانية إلى حين . وكان أن سيطر فريق أحمد رضا على الحكم بعد ثورة تموز سنة 1908 ، وأسفر عن نواياه في

التنكّر للمساواة بين جميع العناصر في السلطنة ، وحاد عن المنهج الدستوري مستبدلاً استبداداً باستبداد آخر » وبخلع السلطان عبد الحميد زال الرمز الأخير لنصف قرن من الاستبداد والطغيان ، وانفتح أمام الاتحاديين المجال واسعاً للعمل المجدي في سبيل بعث الامبراطورية ، وإنعاشها ، وتقويتها . على أن الآمال التي علقت عليهم خاب الكثير منها (. . .) ويجب أن نشير إلى ناحية واحدة ذات علاقة مباشرة بـ « تركية الفتاة » وهي أن المساواة ـ وهي عنصر رئيس من الدعوة بكاملها ـ لم توضع موضع التنفيذ على أيدي جمعية « الاتحاد والترقي » . وبعد الثورة بقليل اتضحت مجموعة أمور يذكرها الدكتور نقولا زيادة في مقدّمته لكتاب « تركية الفتاة وثورة 1908 » الذي ألفه أرنست أ . رامزور ، ويشرحها رامزور شرحاً مفصّلاً ، ونلخّصها نحن بالصورة الآتية :

1 ـ أظهر ما كتبه المراقبون الأجانب في الأستانة بُعَيْد الثورة أن جمعية الاتحاد والترقي جيّرت انتخابات عام 1908 بحيث تكون في مصلحتها ، وبحيث تكون النتائج مؤيدة لموقفها . أي أنها حلّت محل السلطان عبد الحميد في السيطرة على الأمور سيطرة تامّة ، وفي التعسّف في تسييرها .

2 ـ طفا فوراً على السطح انقسام الأتراك أنفسهم حول أمور اساسية تتعلق بسياسة الدولة حيال العناصر المكوِّنة لها . فقد كانت ثمة جماعة ورثت عن الأمير صباح الدين ، فكرة « اللامركزية » ؛ وكانت تقف وراء هذه الفكرة وتؤيدها أغلبية سكّان الولايات العربية ، والولايات الأوروبية ، والأرمنية التابعة للعثمانيين . وكانت هذه الجماعة التركية تتبنى فكرة « العثمانية » التي تجمع العناصر ، وتمنح غير الأتراك نوعاً من الحكم

الذاتي ، » وبذلك يُحتفظُ بهم ثروة وقوة للامبراطورية بدلاً من إثارتهم ضدّها ، ورميهم في أحضان حركات مناوئة داخلية وخارجية . وقد استطاعت هذه الجماعة أن تستلم الحكم ، لكن لفترة قصيرة من عام 1912 كما سنعرض بعد قليل عند الحديث عن دخولها في المعارضة باسم ما يعرف « بالحرية والائتلاف » .

3 ـ ومقابل ذلك كانت جمعية « الاتحاد والترقي » تتبنّى السياسة « المركزية » الصارمة على النمط الاستبدادي نفسه مع تغيير المسمّيات ، وترى « أنّ الحل الأوحد لمشكلة هذه الأقوام المختلفة ، عرباً كانوا أم غير عرب ، هو أن تأخذهم بالشدّة والعنف والاستغلال . ومن هنا كان التشدد في استعمال اللغة التركية لا في الدوائر الرسمية وحسب ولكن في المدارس أيضاً . الأمر الذي أثار النقمة إلى حدّ كبير .

وعلى أثر الاصطراع بين « العثمانية » والتتريك اقتحمت فكرة « اللامركزية » المجلس النيابي ، ودخلت في منهاج المعارضة الذي تبنّاه حزب « الحرية والائتلاف » وأخذ نواب الأقاليم غير التركية ينفصلون شيئاً فشيئاً عن حزب الاتحاد والترقّي . ومع هذا بقي الاتحاديون يسيطرون على زمام الحكم ، إلى أن اندلعت ثورة الألبان عام 1912 عشية حرب البلقان . وكان أن سقطت حكومة الاتحاديين ، وانتقلت مقاليد الحكم إلى حزب « الحرية والائتلاف » الذي أسس ، على الفور ، وزارة شرعت تطبِّق مبدأ « اللامركزية » ، « ودعت المجالس العمومية في الولايات إلى الاجتماع لبحث حاجات الولاية ، وتقديم تقارير عمّا تراه من إصلاحات » وللأسف ، لم تعمِّر الوزارة الائتلافية طويلاً ، فسرعان ما أقدم زعماء

« الاتحاد والترقّي » على انقلاب أعاد إليهم زمام السلطة كرّة أُخرى . فقد باغتوا الوزارة خلال اجتماعها في الباب العالي ، فقتلوا وزير الحربية ، وحملوا رئيس الوزراء إلى الاستقالة . فماتت « اللامركزية » وانبعثت المركزية قوية عنيفة لتولّد ردّ فعل شديداً في أنحاء الامبراطورية كلّها . مما سيؤدي إلى نتائج خطيرة على الصعد كافة .

4 ـ آنئذ ، وبعد الانتصار الساحق للاتحاديين ، كان الوقت مناسباً لتفصح فكرة « الجامعة الطورانية » عن ذاتها ، ولتفرض سيطرتها المطلقة ، ويمثّل هذا الاتجاه في جمعية « الاتحاد والترقّي » أحمد جمال باشا ، وبعض الذين اعتنقوا العقيدة الطورانية كانوا ينادون بوجوب انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية لتظلّ تركية بلداً تركياً بقومية تركية خالصة . وستدغدغ ـ كما سنرى ـ أحلام جمال باشا فكرة أن يصير مَلِكاً تركياً على مصر وبلاد الشام . وقصارى القول أنّ دعاة الطورانية كانوا يقولون بالقومية التركية دون أن يروا أن للقوميات الأخرى حقاً في الوجود ، أو الاستقلال النسبي . وكان لذلك انعكاسات خطيرة على سير الحياة السياسية في الولايات من جانب ، وفي موقف الدولة العثمانية من جانب ثان . فالأرمن العثمانيون ـ وهم يحاولون التصالح ، وفتح صفحة جديدة مع الاتحاديين ـ لم يلاقوا أذناً صاغية ، بل تمادى الطورانيون في إبادة الشعب الأرمني واصطناع الحجج للفتك به . ولما أسّس أبناء الجالية العربية في الأستانة « جمعية الاخاء العربي ـ العثماني » ، وضعوا في أولى غاياتهم إعانة جمعية « الاتحاد والترقّي » على المحافظة على أحكام الدستور ، والنهوض بالعرب ، والمحافظة على حقوقهم . ولكنّ الاتحاديين أغلقوا هذه الجمعية لما لمسوه فيها من اتجاه عربي يتنافى مع ما يدعون إليه ، ويجهدون لتأسيسه . وبين سنتي 1909 و

1912 ، اتضح لرجالات العرب النهضويين ، كما اتضح لغيرهم من أرمن وكرد ويونانيين ، أنّ التعاون مع الاتحاديين مستحيل . وعندئذ بدأ النضال يتخذ سبلاً جديدة ، سرّية حيناً ، وعلنية حيناً آخر . وتأسّست جمعية « العهد » التي أحدثت ضجة كبيرة في الأستانة ، فما كان من الحكومة الاتحادية ، إلا أن تفرِّق رجالها ، وتتخذ بحقهم أقصى العقوبات . ومن أجل ذلك عقد اجتماع بحضور الصدر الأعظم سعيدد حليم باشا ومحافظ الأستانة أحمد جمال باشا وذلك قبل أن يصير وزيراً للبحرية ، ومدير الأمن العام عزمي بك ، وناقشوا الإجراءات الواجب اتباعها لمقاومة « الحركة العربية » التي تعدّ جمعية « العهد » رأسها . وعلى أثر المداولة قرّروا المواد الآتية التي نثبتها لما لها من أهمية في إضاءة الإطار العام لشخصية أحمد جمال باشا :

1 ـ إقصاء الضباط العرب المقيمين في الأستانة إلى المناطق التركية مثل تراقية ، والأناضول . وعدد هؤلاء الضباط (490) ينتمي (315) منهم إلى جمعية العهد .

2 ـ تولية القيادة في البلاد العربية إلى الضباط الأتراك ، وإبعاد الضباط العرب عنها ، والاستغناء عنهم بقدر المستطاع .

3 ـ الإسراع في تنفيذ سياسة تتريك العناصر ، ويقوم أحمد جمال باشا ، بإعداد المنهاج اللازم لتتريكهم .

4 ـ مقاومة الحركة الإصلاحية التي ظهرت في بيروت وباريس .

5 ـ إلغاء الأحزاب العربية برمّتها ، وطرد العرب الذين يعملون ضد الترك من الأستانة .

6 ـ تعزيز نفوذ حزب « الاتحاد والترقي » في البلدان العربية .

هذا في الجانب الأوّل الذي يمكن أن نعدّه داخلياً . أما في الجانب الثاني فقد بدأت الدول الأوروبية تترجم أطماعها في الدولة العثمانية إلى واقع مفروض ، ففي عام 1912 استولت ايطالية « بالقوة المسلحة » على ليبية وهي آخر ما تبقى من أملاك العثمانيين في أفريقية ، وفي عام 1913 « قامت الحرب البلقانية التي أعلنتها بلغارية ، واليونان ، والصرب ، والجبل الأسود ، على الدولة العثمانية لطردها من أوروبة كليّة واقتسام أملاكها الباقية فيها حتى تستكمل كل من هذه الدول وحدة أراضيها واستقلالها » . وبعد أن فرضت روسية نفوذها الخطير ، وجدت الدولة العثمانية نفسها تتقلّص دون أن تملك من القوّة ما يساعدها على حماية حدودها . وبذلك صار الباب مفتوحاً أمام الألمان لفرض شروطهم عليها مقابل امتيازات من شأنها أن تحدّ من أطماع الفرنسيين ، والانكليز خاصة . علاوة على أن الجيش العثماني كان يتهيأ للتجدد على أيدي الضبّاط الألمان الذين أثّروا تأثيراً شديداً في أكبر شخصية في جمعية « الاتحاد والترقي » ، وهي شخصية أنور باشا .

* * *

ما عرضناه في الصفحات السابقة يمثّل الإطار التاريخي ، والسياسي الذي رافق ولادة أحمد جمال باشا ،ونشأته . على أن الجوهري في الأمر هو معرفة كيفية وصوله إلى زعامة « الاتحاد والترقي » ، وشغله لمنصب قيادي على هذا المستوى . وبغية الوصول إلى جواب شاف ، يتعيّن علينا أن نشير إلى أنّ الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني ، ما كان ليتمّ لولا ضباط الجيش الذين استمالتهم جمعية « الاتحاد والترقي » منذ أوائل عهدها . وكان من هؤلاء الضباط النقيب أنور باشا الذي كان واحداً ممّن أرسلتهم الدولة

العثمانية إلى مقدونية حيث كانت قوّات المراقبة من خمس دول أوروبية عظمى هي انكلترا ، وفرنسة ، وروسية ،والنمسة ، وايطالية . ونتيجة لاختلاطه بالضباط الفرنسيين والانكليز ، والألمان على وجه الخصوص توسّعت مداركه الثقافية ، والعسكرية أيضاً ، إذ أخذ عن الألمان أهم مبادىء التكتيك الحربي ، ونتيجة الاحتكاك أدرك ورفاقه الضباط البون الشاسع بينهم وبين الضباط الأوروبيين ، وهالهم ما كان يبديه السلطان عبدد الحميد من انصياع لإرادة الدول الأجنبية . وعلى أثر اجتماع ملك انكلترا ، وقيصر روسية في العاشر من حزيران عام 1908 ، وإصرارهما على وجوب الاستمرار في تنفيذ الخطة الموضوعة للولايات المقدونية (مناستر ، قوصرة ، سلانيك) ، « وفضلاًعن ذلك طالبا بأن يقوم قضاة أوروبيون على رأس المحاكم فيها » . أثيرت حفيظة الضباط الأحرار « فانطلق القول آغاسي (الرئيس الأول) أحمد نيازي الرسنه لي ، والضابط الرئيس أنور بك مع وحدات الجيش التي يتولون قيادتها ، إلى الجبال معلنين الثورة ، وأيّدتهم بقية القطاعات في مختلف أنحاء المملكة » ، وبذلك أجبروا السلطان عبد الحميد على الرضوخ وإعادة الدستور ، والحياة النيابية ، وتحقق للاتحاديين نجاح هائل في الأوساط الشعبية . وكان أحمد جمال باشا من الضباط البارزين الذين كانوا يعملون سراً في « الاتحاد والترقي » . وكان في ذلك الوقت قومنداناً في أركان حرب الجيش التركي . وقد تمّ تعيينه سنة 1908 ،عندما استولى الاتحاديون على السلطة ، والياً على أضنة ، ثمّ على بغداد ، وذلك في عهد وزارة « كوجك » التي أسقطتها التظاهرة التي قام بها حزب « الحرية والائتلاف » في الآستانة ، وتألفت ، على أثرها ، وزارة الغازي أحمد مختار باشا ، فاستقال جمال بك من ولاية بغداد ، وخلال ثلاثة أيام ولّى وجهه شطر العاصمة العثمانية ، وهو يمثّل في نظر الاتحاديين الذين

شيعوه خارج بغداد بطلاً اتحادياً ، ووعياً منه لهذه الحقيقة خطب فيهم خطبة طويلة « في الساحة القريبة من مسجد « الجنيد البغدادي » غلب عليها طابع الحماسة ، وتقوية العزيمة ، والحثّ على ضرورة مواصلة العمل بموجب مبادىء « الاتحاد والترقي » حتى تتحقق آماله كلها ، وختم خطبته بما يقطع الشك باليقين في أنه لم يغادر بغداد مضطراً ، بل غادرها بمحض إرادته ، لأنّ هناك في الآستانة ما هو أجدى بأن يكرّس عمله من أجله ، وأضاف يقول : « قد تظنون أنني أستقيل من ولاية بغداد خشية من معاكسة الوزارة لما أريده هنا ، فإذا كان ظنّكم هذا ، فغلطاً ما تظنّون ، والواقع أني إنّما سارعت باستقالتي لأستطيع الذهاب إلى الآستانة ، فهناك أستطيع العمل على إسقاط وزارة الائتلافيين » .

ورضي جمال بك بعد رحيله عن بغداد بقيادة فرقة الرديف من قونية ، ويقال انه حارب بجرأة وبسالة تحت قيادة محمود شوكت باشا . ثم اعتوره المرض ، فترك الجيش انتجاعاً للراحة ، وكان دائم الدأب على مواصلة العمل من أجل انتصار حزبه ، ولما شفي من مرضه كان مع « أنور » يوم اقتحم « الباب العالي » هو وأنصاره في عهد الصدر الأعظم كامل باشا ، حيث قتل ناظم باشا وزير الحربية . وإسداء لهذه الخدمة الجليلة في عين « أنور باشا » عينّ أحمد باشا محافظاً للآستانة ، وكان محمود شوكت باشا الملقّب بـ « بطل الدستور العثماني » قد ألّف الوزارة الاتحادية الجديدة ، فعهد بوزارة الداخلية إلى « طلعت باشا » ، وقلّد « الفتى المغامر أنور بك » وزارة الحربية بعد أن ظفر به في الترفيع من « قائم مقام » عسكري إلى « أمير لواء » فأصبح أنور باشا ، ووسد المالي الكبير « جاويد بك » وزارة المالية .

ولما تحقق الهدف الذي استقال من أجله أحمد جمال باشا من ولاية

بغداد ، وأوصله إلى أن يكون محافظ الآستانة ، بدأ يصفّي حساباته مع الائتلافيين بالملاحقة والبطش ، لكنّ هؤلاء لم يستسلموا للضربات الأولى ، وأخذهم هاجس الانتقام لناظم باشا ، وفعلاً استطاعوا أن يقتلوا رئيس الوزراء محمود شوكت باشا . وهنا أظهر الاتحاديون عزمهم الأكبر على حماية السلطة التي بين أيديهم ، فاستغلوا الفرصة باطمئنان وثبات ، لتتم لهم ملاحقة المتآمرين ، والقبض عليهم ، وعلى كلّ من يمتّ إلى أفكارهم بصلة ممّن « اشتبهوا في نقمته عليهم أو أنه يحاول التنكّر لهم أو الانقضاض عليهم فتجاوز عدد المتّهمين في هذه المؤامرة الثلاثمئة » في العاصمة وحدها ، وكان في المدن الأخرى ما يربو على هذا العدد . وتهيّأت لهم الفرصة السانحة للتنكيل بأقرباء السلطان أيضاً ، فحكموا بالإعدام على الأمير صباح الدين ، ونخبة من رجال الأمة . وفي ذلك كلّه أبدى أحمد باشا مهارة فائقة في ملاحقة أعداء السلطة ، وأفضى إلى « جمعية الاتحاد والترقي » بخدمات كثيرة أثناء مدّة قيادته ، في الفترة العصيبة بين مقتل ناظم باشا ، ومحمود شوكت باشا . وبعد الاستيلاء على أدرنة ، صار وزيراً للأشغال العامة ، وفي أوائل سنة 1912 أوكلت إليه وزارة البحرية . ويبدو أنّ ارتقاءه السريع في مدارج السلطة غيّب عن ذهنه أنّ « أنور باشا » هو المحرك الأول للجمعية وللانقلاب معاً ، وزاد في تعطشه للسيادة والتسلّط ، ولم يخف الأمر عن « أنور » حيث قدّر جيّداً مدى طموحات عزيمة جمال ، وعزيمة الآخر « طلعت » وزير الداخلية ، الذي كان موزّعاً للبريد ، ثم موظفاً في مركز التلغراف في أدرنة ، ونتيجة إخلاصه للجمعية ، وإجادته التكلّم بالفرنسية ، وتوسّع معارفه ، قفز قفزة هائلة من « بك » متواضع إلى « باشا » شديد الصلابة والتطرّف . وعلى الرغم من أنّ « أنور باشا » لم يكن أحسن حالاً من جمال وطلعت ، إذ وصل بجرأته النادرة إلى منصبه ، وليس

بخبرته العسكرية أو السياسية ، فثمة إجماع على أنه أنقذ الجيش العثماني من الفوضى بعد انتهاء الحرب البلقانية ، وحاول تجديد شبابه . حتى أنّ أصدقاءه لقبوه بـ « نابليون الصغير » . وعزّز اعتداده بنفسه وبمنصبه تعصّبه لألمانية وتعويله عليها ، وخصوصاً بعد أن تعرّف شخصياً إلى الامبراطور غليوم ، وبعد أن تزوّج أميرة من آل عثمان (وآل عثمان كانوا قد أصبحوا كغيرهم من الأسر المالكة التي يقل فيها النبوغ وتموت فيها الشخصية ، فقد أصيبت الأسرة في الواقع بشيء كثير من الخور) ، وهذا الانحلال الذي دبّ فيها جعل « أنور » يفكر بإمكانية جلوسه على العرش ، وبأن يصير السيّد العظيم في تركية ، نسيب السلطان ، ووكيله العام ، وقائد الجيوش التركية في طول البلاد وعرضها . فهل يسكت هواجسه ويطمئن إلى أحمد جمال باشا ؟

في الحقيقة كان أنور باشا يدرك إدراكاً عميقاً أنّ المواجهة المباشرة مع هذا الزميل المنافس قد تضرّ بمصالح الطّرفين في وقت لا يسمح بالمعارك الجانبية ، لذلك عمد إلى أسلوب آخر مفاده أن ينمي في داخل صاحبه فكرة فتح مصر وتحريرها من الانكليز ليدخل التاريخ من أبوابه العريضة ، ويكون ملكا عليها وعلى بلاد الشام لا يقل شأناً عن محمد علي باشا الألباني ، الذي أورث السلطة لأبنائه من بعده . ولسنا ندري كم كان مقدار ثقة أنور باشا بقدرة أحمد جمال باشا على محاربة الانكيز ، لكنها خطته نجحت نجاحاً باهراً إذ أزال عثرة كبيرة من طريقه ، وطريق الإتحاديين الساعين لتحقيق مآربهم الشخصية « فقد كان مثلهم طموحاً للانفراد بالسلطة ، والاستقلال بالأحكام ، فزيّنوا له فتح مصر ، وأبعدوه إلى أطراف المملكة يحيا حياة كلها أمجاد وترف وفخار » . واستجاب هو لهذه

الحيلة ، ونوى أن يخلّد اسمه . وعندما سافر إلى سورية في تشرين الثاني عام 1914 ، صرّح في محطة القطار (حيدر باشا) أنه عزم على ألا يرجع إلى الأستانة قبل افتتاح مصر . فأين كان هذا الحلم من الواقع ، وكيف تصرفت الحوادث بعد وصوله إلى مقر قيادة الجيش العثماني الرابع في دمشق ؟

لعلنا لا نبتعد عن الصواب إذا قلنا أن التخلّص من منافسة أحمد جمال باشا على التفرد بالسلطة لم يكن من تدبير أنور باشا وحده ، إنما كان من تخطيط الألمان وتنفيذ أنور وطلعت . ذلك أنّ اللاعبين على مسرح السياسة في الأستانة كانوا كثيرين ، ولكنّ أبعدهم خطراً ، وأكبرهم تأثيراً على ثالوث « الاتحاد والترقي » هو البارون فون ونغنكهايم ، السفير الألماني في الأستانة ، فقد كان ـ على ما تبرهنه الأحداث ـ شخصية لامعة « تجمع بين مبادىء الألمان الحربية ، وحكمة الانكليز السياسية . حادّ الذهن ، قوي الإرادة » ، وأسند إليه الامبراطور الألماني مهمة التأكد ممّا إذا كانت تركية ستساعد ألمانية في الحرب . واستطاع بخبرته العميقة إدراك مدى إعجاب أنور باشا ،وطلعت باشا بألمانية ، وأن أحمد جمال باشا وحده لم يقع تحت التأثير الألماني ، بل كان مشدوداً إلى فرنسة بوثاق قوي . فخاف الألمان ،كما خاف أنور أن ينغّص عليهم إتفاقاتهم . لذا لفّوا من ورائه أثناء الحرب كي يرغموه على القبول بدخول تركية فيها إلى جانب ألمانية بناء على طلب تركية التي كانت تعني « أنور باشا » فأبرق المستشار الألماني بتمان هوليغ إلى السفير ونغنهايم بخصوص ذلك ، فأوحى السفير بدوره إلى الأميرال سوشون أن يتوجه إلى البحر الأسود ، دون إخبار جمال باشا وزير البحرية ، وذلك لمهاجمة الأسطول الروسي هناك . ولما علم جمال باشا بالأمر ،وجّه أوامره إلى

الأميرال سوشون بالعودة الفورية ،ولم يمتثل الأميرال الألماني ، لكن الباشا أعاد توجيه الأوامر بالانسحاب ،وكانت لهجته صارمة قاسية ، فعاد الأميرال من البحر الأسود مكرهاً . فإذا نظرنا إلى واقع الحال الذي آل إليه جمال باشا من وزير للبحرية إلى قائد للجيش الرابع في سورية ، أمكننا أن نتصوّر الفوضى الإدارية في عاصمة آل عثمان ، وطول الباع الألماني في تسيير دفة سياستها . ولقد جهدت ألمانية حتى بعد رحيل جمال باشا عن الأستانة ،لتقصّ جوانحه من خلال تعيين ضباط ألمان يراقبون خططه وتحرّكاته . وهذا ما كان عندما تمّ تعيين المشير فالكنهاين في جبهة فلسطين لدرس حالتها ، ووضع تقرير بشأنها ، وإلتزام ما يراه مناسباً على الرغم من أنف أنور باشا وجمال باشا اللذين عارضا أن تقوم ثلاث فرق من الجيش الرابع بمهاجمة الحلفاء في جبهة فلسطين . إذ انسحب السفير المشير فالكنهاين من الاجتماع وهدّد بأنه سيخبر الامبراطور غليوم والقيادة الألمانية بذلك . فما كان من أنور باشا « الذي يرى أن كل شيء هينّ غير غضب الامبراطور عليه » إلا أن يجتمع في اليوم الثاني بزميله جاويد بك ، وطلعت باشا ، ويرضخ لمطالب المشير » وبذلك يكون قد أمن غضب الامبراطور عليه من جهة . وقتل نفوذ وعنفوان جمال باشا من جهة ثانية » . ورضي جمال باشا بذلك مرغماً أيضاً .

ولا يتوقف الأمر على مجرّد الاختلاف حول بعض المسائل الحربية ، وتكتيك الدفاع والهجوم ، بل يتعداه إلى أن غاية فالكنهاين الرامية إلى أن يصبح الألمان سادة الجيش ، وأن تتقلص حدود من كان يرى فيهما منافسين خطيرين وهما : مصطفى كمال باشا ، وأحمد جمال باشا . فلا غرابة إذاً أن يأمر بتخفيض رتبة الأول ، وبإرسال الثاني بمهمة إلى برلين كي يحقق

أغراضه . وهذا ما كان حقاً . فما أن غادر جمال باشا إلى ألمانية حتى راح المشير يصدر الأوامر إلى الجيش الرابع دون أن يعطيه القائد العام صلاحية بذلك . وإذا كان علي فؤاد بك قد نفّذ هذه الأوامر ، لأنه لم يكن بوسعه أن يرفضها ، فإنّ جمال باشا ، حال عودته ،لم يعبأ لا بتقرير مصطفى كمال المناقض لتقرير المشير ، ولا بتقرير الجنرال فون قره س باشا « ليس تأييداً لرأي مصطفى كمال باشا ، بل نكاية بالمشير فون فالكنهاين الذي ينازعه السيادة في البلاد . مما ساء المشير ، وأثار احتجاجه على هذا العمل لدى الحكومة الألمانية » فبعث ببرقية إلى رئاسة أركان حرب الجيش الألماني في برلين ، ضمّنها تفاصيل الموقف السياسي الحاضر والعراقيل التي يضعها قواد الترك تجاهه ، خصوصاً أحمد جمال باشا ، وطلب في ختامها إما حمل الحكومة التركية على القبول بفكرته أو إعادته إلى برلين . وحرصاً من الحكومة الألمانية على بقاء « مشيرها » القمين بتنفيذ سياسيتها في المنطقة ، وبعد الاطلاع على البرقية ،بعثت ببرقية إلى وكيل القائد العام أنور باشا هذا نصّها : « عملاً بالاتفاق المعقود بيننا بوجوب الاستعانة برأي قوادنا العسكريين نرى في هذه المرة مخالفة شديدة من وزير البحرية وقائد الجيش الرابع ،وإذا استمرّت هذه الحالة أدّت حتماً إلى عواقب وخيمة . ولهذا نرى أنّ من الواجب تحقيق الطلبات التي قدّمها لكم المشير فون فالكنهاين لأنّ فيها السلامة الحقيقية للبلاد ،وإلا فسنضطر إلى دعوة ضباطنا ، وجنودنا الموجودين في البلاد العثمانية ، وقطع المساعدات التي تقدّم لكم بصورة نهائية .

إزاء هذه اللهجة الواضحة ، وذات النغمة المفعمة بالتهديد والوعيد ، كان على أنور باشا أن يقف موقفاً مختلفا لو كان على رأس حكومة قوية ، وجيش متماسك له كلمته المسموعة ، فكيف إذا كان رهان العلاقة

بين دولتين متحالفتين على أسس سليمة مزاج ضابط وضع خطة لجيش ليس جيشه ،ولم يوافق أولو الأمر على بند واحد فقط من بنودها ؟ !

ولكنّ أنور باشا ، العارف بضعف جيشه ، وانحلاله ، والواثق ثقة مطلقة بحسن نوايا الألمان تجاهه ، ارتاح من التهديد ، وقرر أن يرضي المشير فون فالكنهاين وإن كان ذلك على حساب ضباطه ، وشرف دولته وسيادتها . ورأى أن يلعب لعبة يتملص بوساطتها من حنق جمال باشا ، ومصطفى كمال باشا ، فأصدر أمراً من ثلاثة بنود كان أولها « إلغاء الجيش الرابع وإبداله باسم قيادة جيوش سورية وبلاد العرب على أن يكون مقره دمشق ، وتمتد صلاحية هذا الجيش من سورية ولبنان إلى منطقة عسير واليمن بما فيها بلاد نجد والحجاز . ويعينّ قائداً عاماً لهذه الجيوش الفريق أحمد جمال باشا ، وثانيها إلغاء جبهة سيناء وتحويلها إلى الجيش الثامن ، وتولية الجنرال فون قره س باشا قيادة هذا الجيش ، وثالثها أن يتم فصل منطقة فلسطين عن سورية بعد أن تضم إليها منطقة ما وراء الأردن وتؤلف فيها قيادة عامة يتولاها فون فالكنهاين ، وتكون تحت قيادته أيضاً الجيوش السادسة والسابعة والثامنة » . غير أن مصطفى كمال باشا لم يرض عن هذه التشكيلات ؛ لأنه صار في الواقع تحت أمرة المشير فالكنهاين ، وإن بدا ظاهر الأمر أنه حصل على كامل حقوقه بوصفه ضابطاً بارعاً ، وخبيراً في الشؤون العسكرية . كما أن نفوذ أحمد جمال باشا تقلص كثيراً على عكس ما كان يعتقد ، . . ويرى المعلقون العسكريون أن فكرة « فتح مصر » كانت فكرة ألمانية الأصل ، تصيب عدّة عصافير بحجر واحد : فهي تجهض جمال باشا من جهة ، وتتحرّش بانكلترا من جهة ثانية ، وتصوّر الحلفاء على أنهم أعداء المسلمين والأتراك من جهة ثالثة . فلنتأمل فيما يكتبه علي فؤاد بك رئيس أركان حرب جمال باشا بهذا

الصدد بعد التأكيد أن مركز جمال باشا في الواقع في وزارة البحرية ،لا في صحراء سيناء المحرقة : « وكان إرسال جمال باشا إلى مصر عملاً من الأعمال العديدة التي قامت بها الحكومة التركية مدفوعة من الألمان لإثارة الأحقاد والضغائن بين الشعب التركي والحلفاء » . فهل نفهم من البراهين المسوقة أنّ مصير الباشا السياسي لم يكن ملك يديه ، وهل ينفي مصيره المحكوم صفاته الذاتية التي تطبع شخصيته وسلوكه ؟

ينبغي ألا يغربنّ عن البال التلاحم العضوي بين الذات الإنسانية ومحيطها القريب والبعيد الذي يحدّد مساراتها الصاعدة أو الهابطة . وفي الحقل السياسي عموماً لا نجد حلاً وسطاً لمصير الأفراد : فإما أن ينتصروا ، وإما أن ينهزموا ، ومهما تغلّف النصر بوشاح الهزيمة سيبقى نصراً ،والأمر نفسه ينطبق على الهزيمة . هذا عندما يكون المتنازعون مستندين إلى ركائز صحيحة ،وحسابات دقيقة . بيد أن الاتحاديين ، ومنهم أنور خاصة ، حلموا بالنصر بناء على حسابات غيرهم ، أو لنقل بناء على ضمانات الألمان ، دون أن يراودهم أيّ شكّ في أطماعها التي لم تكن أقل من مطامع الحلفاء . وإذا كانت حرب البلقان قد أزالت طبقة من الغشاوة عن عيني أنور باشا ، إذ بيّنت الضعف الهائل الذي يفتك بجسد الجيش العثماني ، فإن لقائه بالامبراطور الألماني قد أضاف من الغشاوة طبقات كثيرة ، حيث ظنّ أن استلام الضباط الألمان لقيادات جيشه سيساهم في غسل العار الذي لحق به في الحرب البلقانية . وفي الوقت الذي طار فيه أنور باشا مع أحلامه الوردية بالنصر الذي سيحمله إليه الألمان ،كان السفير الألماني في الاستانة يرسم استراتيجية بلده في أفق آخر تماماً . فهو يشرح أهداف بلاده من استمالة تركية إلى جانبها قائلاً للسفير الأمريكي مورغنتاو : « إن ألمانية كانت

ترمي إلى إثارة العالم الإسلامي على المسيحيين ، وأنها كانت تريد إثارة حرب دينية للقضاء على سلطة انكلترا وفرنسة في مستعمراتها الإسلامية في الهند والجزائر ومصر وغيرها . وأما تركية فإنّها ـ في الواقع ـ ليست شيئاً مهماً ، فجيشها صغير ينقصه التدريب والسلاح ، ولا ينتظر منه عمل مجيد في ساحة القتال ، ولكننا نرى في تركية العالم الإسلامي ، فإذا تمكنّا من إثارة الرأي العام الإسلامي ضد إنكلترا وفرنسا وروسية نستطيع إرغام هذه الدول على طلب الصلح » .

والغريب أن أحمد جمال باشا يعوّل على المسلمين في « فتح مصر » أكثر مما يعول على حجم جيشه أمام القوات الانكليزية ، وعندما ينهزم يحمّل أبناء العرب والإسلام عبء الهزيمة ليس في مصر وحسب ، بل في بلاد الشام أيضاً .

على أية حال لن نقف عند ولع الثالوث الاتحادي بالخوض في المستحيلات ، لكنّا ننوّه بأن قصر النظر صفة دامغة من صفات رجاله ، وأحمد جمال باشا واحد منهم ، إذ غاب عن وعيه أنّ المسلمين في مصر ـ كما في بلاد الشام والحجاز ، واليمن ـ كانوا قد أسقطوا من حسابهم جدوى المناداة بالرابطة الدينية مع الأتراك ، لما لاقوه من فساد وظلم على أيدي سلاطين آل عثمان . وعلى افتراض أنّ قوّة هذه الرابطة كانت قمينة باستنهاض المصريين ضد إنكلترة ، فهل كانت انكلترا ستقف متفرجة ، وهل كانت تجهل إمكانية قيام العثمانيين بمثل الحملة التي سيّرها إلى قناة السويس لفتح مصر ؟ !

ما نريد أن نصل إليه هو أنّ الظرف الخاص لشخصية أحمد جمال باشا

لاينفصل عن مجمل المعطيات العامة التي عرضناها آنفاً . ويبقى أن نعطي فكرة موجزة عن الهموم التي ساورت حلمه بأن يكون ملكاً مطلق اليد في بلاد الشام ، وخصوصاً بعد إخفاقه في حملة « القناة » .

لما جاء جمال باشا إلى سورية لقيادة الجيش الرابع ،والاستعداد لحملة القناة ،أخذ يسعى لكل ما يستطيع ليستقل بشؤونه العسكرية والسياسية عن الآستانة ،وكانت هذه الظاهرة منه ـ الشبيهة ، على أرجح الظن ، بما كان يحاوله غريماه أنور وطلعت للانفراد بالسلطة ـ دليلاً على أن جماعة الاتحاديين لم يكونوا « حزباً » بكلّ ما في الكلمة من معنى ، وإنما كانوا أشخاصاً يعمل كل واحد منهم لنفسه ومصالحه . وهاهنا يكمن « بيت القصيد » الذي سيسعفنا في معرفة الطرائق التي اتبعها أحمد جمال باشا لتحقيق مصالحه ، تارة بإسم الرابطة « العثمانية » ، وتارة بحدّ السيف . ولنا هنا أن نستفهم عن حجم ما قدمه من خدمات عامة لبلاد الشام خلال ثلاث سنوات ، وعن المساهمات التي أسداها لقضايا العرب ، ووعد بإسدائها حين تحين الفرصة المناسبة . وماذا كان يريد بالضبط ! ؟ ولماذا نكّل بالأحرار الوطنيين الذين كانوا يجهرون بانتسابهم إلى اللامركزية ، مع العلم أنّ ثمّة ، من الدارسين ، من يستند إلى الوثائق التاريخية ليدلّ على أن الباشا لم يفكر في أول الأمر في اتخاذ التدابير الشديدة ، أو القيام بالتحقيقات العسكرية ضد من كانوا يطالبون بالاستقلال من رجال العرب « حتى أنه نبّه إلى ضرورة رفع الرقابة عن السوريين الذين كانت السلطات التركية بأمر أنور باشا قد اعتقلتهم ، كما استاء جدّاً من المعاملة الشائنة التي عومل بها نخلة باشا المطران في تطويفه في شوارع دمشق ، وأخذ يدعو الوالي إليه ، ويوبخه على عمله هذا . . » . وتكثر علامات الاستفهام عند من يعجبون

من تبدّل سلوكه ، فيتساءلون : هل كان مصدر إنكاره لاعتقال السوريين أن أنور باشا هو الذي بدأ به ، فقام نكاية به بوصل ما انقطع معهم ؟ أم أنه انقلب بسبب الدسائس والوشايات التي أحاطت به منذ وصوله إلى بلاد الشام ، واشترك فيها جماعة من السوريين واللبنانيين ؟ أم أنّ انخذاله في « حملة القناة » دفعه دفعاً قوياً ليرأب صدوع نفسه مظهرياً ، فأراد لذلك إلقاء الرعب في قلوب السوريين واللبنانيين بحيث يشتغلون بأنفسهم عنه ، وعن سياسته وفشله ؟

والحقّ أنّه لا مندوحة لنا من أخذ ذلك كله بعين التقدير كي تستقيم أحكامنا وتصبح في خدمة الحقيقة . هذا من دون أن نتناسى - في أيّة حال من الأحوال - خلفية تكوينه الفكري والسياسي المستندة أساساً إلى العقيدة الطورانية . فهو وإن لم يكن مخلصاً لها بقدر إخلاصه لنزواته الخاصّة ، وأمجاده الشخصية ، واحد من أربابها ، ومنفّذ أريب لمآربها ، وقد برهن على ذلك منذ أيام ولايته على أضنة ، واستلامه لأمن الآستانة ، وربّما وقع اختياره لقيادة الجيوش العثمانية المرابطة في سورية - بالإضافة إلى ضرورة إبعاده عن العاصمة - في مدار جمعية « الاتحاد والترقّي » ، لأنّها - كما يقول أسعد داغر - « رأت فيه أقدر رجل على تنفيذ الخطّة التي قرّرت إتباعها في البلاد العربيّة » . فأعمل يد التنكيل بكل من حاول الخروج على مبادىء جمعيته ، وإن كان خروجا ذا دوافع وطنية أو قومية سامية شجعها هو ذاته في بداية عهده ، كما فعل رجال النهضة والتحرر العرب ، والمناضلون الأرمن ، والكرد ، واليونان ، والبلغار ، وغيرهم .

ونحن نحسب أن ما يحسم المسائل الخلافية حول نوايا أحمد جمال باشا

هو الاقتراب أكثر من صفاته الشخصية التي أثبتها من عاشروه ، واشتغلوا بأمرته ، أو التي يمكن استخلاصها من أحاديثه ، وأقواله ، أو من الأحداث التي لعب فيها دور الدافع والموجّه . فما هي إذاً ملامح شخصيته ؟ !

- 2 -

ملامح الشخصية

يحتاج تحديد ملامح شخصية من الشخصيات إلى كثير من التروّي ، إذ ليس كل ما يبدو في الظاهر يكون انعكاساً حقيقياً لما يكمن في الداخل ، وإن كان الوجه يشكّل المركز الأول للتعبير عن انفعالات الإنسان الداخلية . غير أنّ هناك من يذهب إلى أنّ الخبرة بالناس تساعد كثيراً في كشف خباياهم من تعابير وجوههم ، ومن الحركات التي تطرأ على أعينهم ، وأحياناً من طريقتهم في إرسال الكلام أو حبسه . وفي التحقيقات الجنائية أمثلة ثرّة على ذلك . وهذا يسهّل علينا مهمة اعتماد الأوصاف الخارجية التي قدّمها من قابلوا أحمد جمال باشا ، لكنّه لا يفعل أكثر من زيادة حرصنا على إثبات طباعه التي إذا ما وقفنا عليها إلى جانب الملامح الظاهرة ، اطمأنت تقويماتنا ، وما سنبنيه عليها من استنتاجات . ولذلك قد يكون من المسوّغ تقسيم ملامح هذه الشخصية إلى خارجية ، وداخلية .

1 ـ الملامح الخارجية .

قليلة هي المعلومات الموجودة في حوزتنا عن هذا الجانب من شخصية أحمد جمال باشا ، ومع تخميننا أن نصيب الشكل الخارجي للإنسان في الإفصاح عن نواياه ليس وافراً دوماً ، تبقى دراسته جزءاً مكملاً لإدراك أبعاد الشخصية ، وقدرتها على ضبط الاضطراب الداخلي ، بهدوء خارجي ، أو عدم قدرتها على ذلك . وقد تنبه المؤرخون وكتّاب التراجم منذ

القديم إلى هذه الناحية ، وقدّموا تصويراً شديد الأهمية لكثير من رجال السياسة والحرب ، والعلم . على أن من التفت إليها ممّن قابلوا الباشا قلائل ، بل نادرون ، كالمحرر السياسي لمجموعة تايمز الحرب العالمية الأولى ، والسفير الأمريكي في الآستانة (مورغنتاو) ، وبعض ما ألمع به علي فؤاد بك وابراهيم شكر . فالأول يلاحظ أنّ المظهر العسكري الذي كان يحرص على إبرازه ، كان يعكس غلبة التربية العسكرية عليه ، وسيطرتها على أفكاره . ومهما كان يحاول أن يعدّل من قساوة تقاطيعه ، يبقى أقرب إلى الفظاظة ، وقلّة الجاذبية ، وعدم اللباقة في الحديث . وينتهي المحرّر إلى أنّ التربية العسكرية كانت تتغلب فيه « حتى على الحقائق التي كان على السياسي اللبق أن يأخذها بعين الاعتبار » ، ويضرب لذلك مثلاً حديثه مع سفير فرنسة في الآستانة في تشرين الأول سنة 1914 ، وذلك قبل دخول تركيا في الحرب العامة . وبينما كان الجنود الأتراك يرسلون إلى بعض المراكز الحربية على الحدود العثمانية المصرية ، فقد قال يشكو له زميله السفير الانكليزي « لقد عرضت عليه منذ أيام أن نبدأ بالمباحثات التي تؤدي إلى سحب القوة الانكليزية من وادي النيل بعد الحرب طبعاً ، وفكّر أنه لم يتلفظ بكلمة جواباً على اقتراحي هذا » . ويضيف المحرر السياسي للتايمز : « ومن المؤكد أن جمال باشا لو كان لبقاً ، حسن السياسة لما تكلّف مثل هذا الحديث مع السفير الانكليزي في الآستانة ، فإنّ مثل هذا الاقتراح كان حرياً بكثير من المقدمات يجب أن تسبقه ، كما أن مثل هذا الأمر الذي يعدّ خطيراً في نظر انكلترا ، كان من الحق أن يبحث في لندن لا في الآستانة » .

ويتفق السفير الأمريكي في الآستانة مع هذا المحرر في أمر قساوة الملامح ، والمباشرة في الحديث ، ويرجع سبب نفور سكان العاصمة

العثمانية منه إلى هذه الناحية . على أنّه يعطف وصفه لملامح جمال باشا على ملامح زميليه أنور وطلعت بقوله : « والواقع أن جماعة الاتحاديين كانوا مزيجاً غريباً في أخلاقهم وهيئاتهم : فقد قرن طلعت باشا إلى أغراضه الشريرة طلاوة الوجه ، وحلاوة الحديث ، فاستترت نيّاته وأغراضه ، وجمع أنور إلى عيوبه وشروره شجاعة نادرة ، وصورة حسنة ، فأخفت الثانية الأولى . أما وجه جمال ـ كما قال لي أحد الأمريكيين المتضلّعين في علم الفراسة Physionomie فيجمع القوة والشراسة ، فلا يقدر أحد أن يرى فيه لطفاً وإيناساً ، كانت عيناه سوداوين ، إذا نظر اخترق الصدور ، وكانت ضحكته ممزوجة بشيء كثير من الوحشيّة » ولعل نزوعه للاحتفاظ الدائم بوجه « الحاكم العسكري » للعاصمة العثمانية ، كان وراء تلوّن وجهه بالضراوة ، والخشونة ، والخطوط المنكسرة ، ويبدو أنّ كثرة قرارات الإعدام التي اتخذها ، حتى عندما كان والياً على أضنة ، قد أكسبت ملامحه تجهماً ممزوجاً بانفتاح ضئيل للأسارير التي يراد منها التعبير الظاهري عن الرضا والاطمئنان النفسي . وهذا المظهر الخارجي ضرورة من ضرورات الحوار السياسي . ولكنّ أحمد جمال باشا لم يكن ينجح دائماً في الاحتفاظ به على حدّ ما نستخلص من رأي محرر التايمز . ونظنّ ظناً أنه بدافع من هذه المفارقة ، كان يشفع ذاته بلغة الخطاب ذات العبارات الضخمة ، والجرس الضخم ، ففي خطبه الأولى وبلاغاته كان يلوذ بهدير اللغة ليقوي حجّته ، وذاته في آن معاً . وكان هدير خطابه يتماشى مع ثورانه الدائم ، حيث يتحوّل عندما يثور غضبه ـ « وكثيراً ما كان يثور ـ ليصبح مخلوقاً فظّاً لا يتورّع عن شيء » .

وتدليلاً على تمسكه بالتعابير الخارجية المعاكسة لما يعتوره في الداخل ، نورد ما وصفه به رئيس أركان حربه علي فؤاد بك الذي رافقه في أثناء حملة

القناة . فهو يحدّثنا أن جمال باشا كان يتلقّى مديح الشعراء ، في طريقه إلى غزو القناة ، دون أن تدلّ ملامحه على شيء من الاضطراب والقلق ، وخوف الفشل « فقد كان متمكناً من نفسه ، متماسكاً ، يطلق حوله نظرات مبهمة كانت تعني أنه خليق بهذا المدح ، وأنّ ما يرجوه الناس منه واقع حتماً » .

ولا نستطيع أن نحدد بالضبط إن كان في هذا الوصف دليل على المظهر الزائف الذي كان الباشا يتحصّن وراءه ، أم على التمكّن من النفس ، أم على وجود مسافة طويلة أو قصيرة بين حقيقته ، والحجم الذي يعطيه لذاته ؟! ومهما يكن من أمر ، فإنّ ما يمكن أن نقرأه من ملامحه التي جاءنا بها الكتّاب المذكورون ، يلتف كله حول شخصية ذات هيئة عسكرية مشوبة بغير قليل من التلاوين التي أراد لها صاحبها أن تناسب شتى المواقف التي يتعرّض لها . وكان الغيظ على رأس هذه الألوان ، وسرعان ما كان يقلبه إلى عنف في المعاملة ، وقتل ، أو ما شابه ذلك . ومن هذا القبيل نثبت شاهداً مما رواه لنا فارس الخوري في أوراقه عندما جاءه صديقه توفيق بك يخبره أنّ واحداً يدعى عبد الغني الرافعي زعم أمام جمال باشا أنه مشترك في جمعية سرية تعمل ضد الأتراك ، ويعمل معه شكري الأيوبي ، وفارس الخوري وزعماء آخرون . وعلى الفور ، ودون مناقشة ، أصدر أوامره للقبض على كلّ من ذكرهم الرافعي . وأضاف توفيق بك يقول للخوري : « وأنا أعلم جيداً أنّ قوله عنك كذب وافتراء ، ولا يمكن أن يكون لك ضلع بمثل هذه المؤامرات ، وخصوصاً مع مثل هذا الشخص المقبوض عليه . ولا أنكر عنك أن جمال باشا مضطرب جدّاً ، ومفعم غيظاً من هذه الحادثة ، وقد قبض اليوم على أمير اللواء شكري بك الأيوبي ، وكان يريد أن يؤتى بك مخفوراً من درعا ، ولكنّي تعهدت له بمجيئك مختاراً . . » . ويظهر أنّ غيظه كان عديم التراجع أو يكاد ، وإلا فكيف يوشك أن يودي بحياة متهم

كفارس الخوري وهو نائب في « مجلس المبعوثان » ولا سابقة له من هذا النوع . وهنا في هذه النقطة يصير الإنسان « كتلة من الظلم والغطرسة » لا يتبيّن المرء خيط الباطنِ من خيط البادي للعين من شكله ، وتركيب أعضاء جسده . واستناداً إلى ذلك نقول : هل كان جمال باشا سفّاحاً بطبعه ، فاستطار الطبع ملامحه الخارجية ، أم أن الملامح الخارجية غزت الطبع وتآلفا على خلق هذا السلوك غير الإنساني عنده ؟

بحسب ما يذكره الاستاذ ابراهيم صالح شكر ، وهو واحد ممّن عرفوا جمالا منذ ساعة وصوله إلى بغداد لاستلام الولاية عليها ، إذ فطن هذا الرجل إلى أدقّ الملامح الخارجية في شخصيته ، وإلى ما يصاحبها من طباع داخلية تتخفى خلفها حيث يصعب على غير الحصيف أن يتملّص من الانخداع بها ، فلنقرأ ما كتبه الاستاذ شكر في إدراكه لهذا الرجل ملفتاً الانتباه إلى ضراوة الوجه ، وتعبير العينين : « جاء جمال بك بغداد ، في العقد الرابع من حياته ، أنيق المظهر ، في قامة تناسقت أعضاؤها ، وتناسبت ألواحها ، وعلت عليها هامة كبيرة ، في صباحة وجه قاس شديد ، انتظمت فيه لحية كثّة شقراء ، غلبت عليها التطرية والتجميل ، لتطل عليها عينان واسعتان تلمع فيهما القوة الفاجرة ، والمكر الغادر ، والكيد الأثيم » . فما الذي يمور خلف هذه الصورة الموصوفة وصفاً رائعاً ، من دوافع ومشاعر ؟ ! ويضيف الاستاذ شكر متسائلاً : « وهل لمست « لين الأفعى » ؟ هكذا هو جمال بك . وهل سمعت بالسّمّ القاتل » ؟ . . هكذا هو جمال بك . فإذا قلت جمال بك فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، ومن جمال بك أيضاً » . ويخلص إلى وصفه بأنه طاغية جبار ، غير غافل عن غلاف اللغة الطنانة التي كان يستعين بها : « فإذا هو خطيب مصقع

لا « يتلجلج » في التبيان ، ولا يتلعثم في اللسان ، وإذا خطبته تلك (وهو يقصد الخطبة التي ألقاها جمال بك عند تسلمه لولاية بغداد) تتدفق قوة في رفق ، وقسوة في عدل ، وشدة في رأفة » .

وهكذا تكاد ملاحظات من تعرّضوا لوصف ملامحه الخارجية وبعض معانيها التعبيرية ، تتطابق تطابقاً غريباً تشفع له الانطباعات التي تولدها صورة جمال باشا للمتأمل فيها فوجهه ينضح ـ أول وهلة ـ بتناسق القسمات ، ووسامة المنظر ، لكنّ في عينيه ذلك « المكر الغادر ، والكيد الأثيم » المجاور لابتسامته الصفراء المنطوية على مثل ما أفاد به الاستاذ شكر في الأسطر الآنفة الذكر .

وبعد ، فهل تكفي هذه الملامح لإلقاء الضوء الثاقب على زوايا شخصيته كلها ، ولفهمها من الداخل أيضاً ، أم أننا بحاجة إلى النزول نحو قاعها ، وضرب الأمثلة الخليقة بجعلها تطفو على السطح ؟

لقد جاء ما قدمناه حتى الآن بصورة وصفية تعوزها البراهين الدالة أكثر على نوايا هذا الرجل ـ الطاغية ، لذا نجد أن إكمال الحديث عنه لا يتم إلا بالتعرض لملامحه الداخلية ، وإن كان الفصل بين داخل الإنسان وخارجه عملاً اصطناعياً في الواقع كيما يتسنى أن نلمّ أطراف التحليل ، ونكوّن نظرة شاملة مفيدة .

2 ـ الملامح الداخلية .

حينما ينتقل النقاش من مدار الشكل الخارجي للإنسان ، إلى مدار ما يعتمل في داخله من نوايا ، ونزعات كامنة في عقله الباطن ، تختلف

الآراء إلى حد التضارب والتناقض أحياناً . وهذا ما نلاحظه فيما أدلاه الدارسون عن بعض مواقف جمال باشا حيال مجموعة من القضايا ، لعلّ أهمها على الاطلاق قضية الجمعيات العربية أو العربية العثمانية التي كان ينتمي إليها أعيان العرب وزعماؤهم ، والتي كانت تناضل من أجل هدفين : تقوية الرابطة العثمانية في ظل « الدستور » الخليق بتأمين المساواة بين العناصر داخل جسد الامبراطورية العثمانية ، والمطالبة بالاستقلال النسبي أو الكلي للبلدان العربية عن هذه الامبراطورية ، مع إبقاء الترابط معها على أساس جامعة إسلامية تحترم المشاعر القومية للشعوب الإسلامية . وقضية « المجازر الأرمنية » التي دبرها الاتحاديون ، ونفذوها ليبيدوا مليوناً ونصف المليون من الأرمن ، وما علاقة جمال باشا بالإعداد لها ، أو بتنفيذها ؟! وهل هذه العلاقة مباشرة أسفر عنها بوضوح كما فعل طلعت باشا ، أم أنها غير مباشرة ؟

على كل حال سنفرد فقرة خاصة لكلِ قضية من هاتين القضيتين ، ونجد من اللازم الآن أن نعالج الملامح الداخلية لشخصية واحدة واحدة ، لتتكوّن لدينا ـ من بعد ـ نظرة كلية من شأنها أن توفر الدقة ، ووفرة الأدلة والبراهين :

أولاً ـ الملمح الأول هو الغدر الذي اصطنع له جمال باشا صورة التقرب الوفي من الإصلاحيين العرب ، وأعدّ العدّة لاستمالتهم إليه ، فاتصل بزعمائهم وأدناهم منه فاتخذ الدكتور عبد الرحمن شهبندر طبيباً خاصاً له ، كما فتح أبوابه في وجه عبد الكريم الخليل فكان يدخل ويخرج أيّ وقت أراد ، ونفح محمد كرد علي مبلغاً كبيراً من المال باسم جريدة « المقتبس » ،

وجاد بمثل ذلك عبد الغني العريسي صاحب جريدة « المفيد » ، وكلتا الجريدتين من أعظم صحف الاصلاحيين يومئذ ـ فانضمّتا إلى الحكومة عملاً بالخطة المرسومة » . ولم يتوقف في طمأنته لهم عند هذا الحد ، بل نوى أن يلتقيهم في حفل أدبي ، يقيمه في « النادي الشرقي » يكرم فيه الشيخ عبد العزيز جاويش ، وهكذا حضر شبان العرب ورجالهم ، وألقوا كلمات عديدة ، وأنشدوا الأناشيد الحماسية المفعمة بالوطنية والقومية ، ولما جاء دور الباشا وقف يعرب عن مشاعره تجاه العرب والعروبة بهذا الخطاب الذي نرى أن نقتطف منه مقاطع تعيننا في إظهار أفكاره الأساسية :

ـ « يجب عليكم ياأبناء العرب أن تحيوا مكارم أخلاق العرب ومجدهم منذ شروق أنوار الديانة الأحمدية . أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبل الإسلام . عضّوا على عروبتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم . اعملوا على ترقية العرب والعروبة » .

ـ « إنّ البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه لإصلاح حالة العرب لأوسع كثيراً مما يخطر ببالكم . ولست لأوجس شراً من بقاء العرب والترك متحدين وخاضعين لخليفة واحد . . » .

ـ « واليوم أراني قادراً على أن أؤكد لكم أن الأماني التركية ، والأماني العربية لا تتعارضان مطلقاً ، فالترك والعرب ليسوا سوى اخوان في غايتهم الوطنية وربما أكمل بعضهم مجهود بعض . إن غرض رجال « تركيا الفتاة » هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية وتدريب مواطنيها على العمل ، وتحريرهم من النير السلافي وتقويتهم » .

ـ « إنه لمن أشدّ بواعث الأسف والحزم أن تنجح المحاولات الشيطانية

التي يحاولها أعداء الدين والوطن في بذر بذور الشقاق بيننا ؛ فعلى الترك والعرب أن يحبّوا بعضهم بعضاً . . . . . » .

لقد أقيم هذا الحفل في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني سنة 1915 ، وهو اليوم نفسه الذي أصدر فيه جمال باشا أمراً عسكرياً بتفريق كتيبة الضباط العرب الشبان في مدينة دمشق ، وكان عددهم (80) ضابطاً من خريجي المدارس العالية . ولما سئل عن السبب الذي يدفعه لحل كتيبة من ضباط جيء بهم على أثر إعلان الحرب العظمى ، وتمّ تدريبهم ليكونوا ضباطاً فاعلين ، أجاب بأنهم أزعجوه بأناشيدهم الوطنية الحماسية في أثناء حفل التكريم . ولم يكتفِ بذلك ، بل أرسل هؤلاء الشبان في أصقاع شتى من ميادين القتال ، في الدردنيل ، والقوقاس ، والأماكن النائية ، وزجّ بهم في أفواه المدافع على خطوط النار ، ولم يكتب إلا لأقلهم أن ينجوا من الموت ! فهل يمكن أن يكون مجرد الإزعاج دافعاً كافياً للتنكيل بمجموعة شبان لم يقترفوا أي ذنب سوى أنهم غنوا لوطنهم ، ولعلهم تحمسوا بدافع من كلمته التحريضية وهو يوصي العرب بالوطنية وبأن « يعضوا على عربيتهم بالنواجذ » ، وبأن « يحيوا » أمجاد العرب ومكارم أخلاقهم ؟! قد يمكن أن تؤخذ لغة خطابه على أكثر من محمل ، وتبعث على التوجّس والحذر ، ولكنّ معاملته الأولية لزعماء الوطنيين ، والمقام الذي تحدّث فيه ، لم يكونا يسمحان أبداً بوثوب الظنون إلى الذهن . ولكنّ جمال باشا لم يفعل ما فعله عرضاً ، أو تحت تأثير نزوة « انزعاج » عابرة ، بل استجاب لشيمة الغدر المتأصّلة فيه ، والتي وسمت سياسة « تبييت » الأمور ، واقتناص ضحاياه حالما يرى الفرصة مناسبة . وهذا ما قام به ، مثلاً ، عندما سلّمه بعض الموظفين الأتراك رسائل عثروا عليها أثناء تفتيش القنصلية الفرنسية في

دمشق وبيروت ، وكان في هذه الرسائل اتهام لبعض الشخصيات العربية المرموقة ، وأدلة على أنهم قاموا بنشاطات استقلالية للانفصال عن الدولة العثمانية . فهو لم يبد أي تأثر يدعو إلى الارتياب ، بل اكتفى بإخبار الشريف حسين بما تتضمنه الرسائل ، ووضعها في أحد الأدراج ، وأقفل عليها ، وولى وجهه شطر مصر لفتحها ، وتحريرها من الانكليز . وحال عودته ، بعد إخفاقه ، أقام في القدس ، « وشاعت إشاعات عديدة في القدس عن فشل الجيش وانكساره » ، فما كان من طبيبه الخاص الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، وصديقه المقرّب عبد الكريم الخليل ، إلا أن يسافرا إلى القدس في نيسان عام 1915 ، بناء على طلبه ، ولمّا قابلاه ألفياه مضطرباً ، وأخبرهما أن الجيش على ما يرام ، وأمرهما أن يذيعا ذلك في دمشق . وفجاءة ، وكان ذلك في أواخر شهر حزيران من العام نفسه ، وصل الناس خبر اعتقال عبد الكريم خليل وعدد آخر من الزعماء ، دون ذكر الأسباب ، وخلال شهرين وعبر محاكمات سرية في عالية أمام « ديوان الحرب العرفي » ، صدر قرار بشنقهم دون استثناء ، وصادق جمال باشا على هذا القرار الذي ذهب ضحيته أحد عشر واحداً من خيرة رجال العرب .

وثمة حادثة أخرى تشهد على غدره المتوحش ، فقد كان من جملة المتهمين في الأوراق الموجودة في القنصلية الفرنسية يوسف الهاني ، إذ قدم إلى المحاكمة كالآخرين ، فرأت زوجته أن تشفع له عند جمال باشا ، فأقامت على شرفه حفلة راقصة دعت إليها نساء الطبقة الراقية في بيروت ، « وبعد انتهاء الرقص ، وشرب الشمبانيا » ركعت النسوة بين يديه طالبات العفو عن يوسف الهاني المعتقل . فوعد بأن يجيب على طلبهن خيراً ، بينما أرسل على الفور رسولاً وأمر بشنقه ، لترى زوجته جواب شفاعتها زوجاً

مشنوقاً في ساحة البرج ببيروت .

ويتفرع عن شيمة الغدر ملمحان داخليان قد يشكلان عاملين مساعدين لاستكشاف العلل الكامنة وراء غدر جمال باشا بالأحرار العرب ، ولبلوغ تلك الخلفية « الطورانية » التي تحدثنا عنها سابقاً . والملمحان هما : عدم الثقة بالعرب ، وحدّة مزاجه تجاههم .

1 ـ نصادف ترجمة عدم الثقة بالعرب من خلال موقفه منهم ، وهم تحت أمرته في الجيش الرابع ، فهو يبرق إلى رئاسة أركان الحرب العامة من عالية في التاسع من تموز سنة 1333 هـ شيفرة رقم 3105 جاء فيها : « من العبث إقناعي بصحّة المعلومات الواردة إليكم ؛ فالأعداء يقومون بحركة واسعة النطاق للقيام بهجوم عام ، والسوريون العرب يتهيؤون لمعاونتهم ، فأنا غير واثق من أمانة القوات التي تحت أمرتي خصوصاً الفرقة 26 الموجودة في درعا ، والفرقة 27 الموجودة في بئر السبع ، والفرقة 48 ، وأصرّ ـ تأميناً للحال الراهنة ـ على وجوب إرسال قوات جديدة للمدافعة عن الموقف الحاضر ، واستبدال القوات العربية بأكثرية تركية » . (قائد الجيش الرابع : أحمد جمال) .

ومن الثابت أن أنور باشا كان يتجاهل طلبات جمال عمداً ، ويلح هذا الأخير على أمر عدم الثقة بالعرب ، ويرسل ردّاً تحت رقم 2402 هذا نصه :

« ما دامت التماساتي لم تقبل ، فإني أصرف النظر عنها ، إلا أنني أرجو أن تبدلوا الفرقة 27 المعسكرة في بئر السبع ، بفرقة أخرى من الجنود التركية إذ لا ثقة لي بهذه الفرقة التي معظمها عرب ، وأنا على استعداد للاستغناء

عن هذه الفرقة ووضعها تحت أمرتكم بدلاً من الفرقة التركية التي تحل محلها . » (ق . ج . ر) . وسنرى لاحقاً أن « عدم الثقة » هذه ، كانت وسيلة أخرى من وسائل محاصرتهم ، ومحاولة النيل منهم ، واتهامهم في شرفهم العسكري والوطني ، وتحويل بسالتهم إلى جبن ، وإقدامهم إلى فرار . وسنأتي بالشواهد المناسبة على ذلك في موطن آخر .

2 ـ قد تكون حدة المزاج صفة متأصلة فيه ، وهناك حوادث متعددة دفعت بزملائه في السلطة لمداراته بالسياسة والحيلة أحياناً ، تجنباً لإثارة مزاجه وعناده . وكان يمكن لهذه الصفة أن تتعدّل أو تنام لو أن جمال باشا كان لا يضع في حسبانه محاربة الفكرة القومية العربية ، والداعين إليها . وزاد الطين بلّة انكسار أحلامه العسكرية على جبهة سيناء ، وهو انكسار عائد ، كما يقول جورج أنطونيوس ، إلى سوء تقديره ، إذ رجع من سيناء « وهو يشعر بالذلّة في قرارة نفسه ، وأصبح حاد المزاج كما هي عادة أوساط الرجال حينما يصابون بالخيبة » . وإذ ذاك ما عاد يفرق بين متهم مذنب ، ومتهم بريء ، ولم يكلف نفسه مغبّة البحث عن الدلائل الكافية حيث رسخ في نفسه أن العرب خونة ، ويجب أن ينالوا أقصى العقاب . وترافقت حدة مزاجه تجاه العرب ، برغبة حادة في الانتقام منهم ، وذلك في ميدانين : الميدان السياسي الذي قرّب إليه من رجاله بعض الزعماء ، والميدان العسكري الخاص بوضع الضباط العرب داخل جيوش العثمانيين العديدة . ونيّته في النيل من العرب حاضراً وماضياً مترابطة على الصعيدين كليهما . فما يكاد يثار في شيء يخصهم ، حتى يسارع إلى اتخاذ تدبير سياسي يعقبه على الفور إجراء عسكري بحق الضباط العرب .

يروي لنا الاستاذ أمين سعيد في كتابه « الثورة العربية الكبرى » حادثة

تدل على نيّة جمال باشا ، وعلى رغبته في الانتقام من العرب » وخلاصتها أن امبراطور ألمانية أهدى في السنة الثانية للحرب قنديلاً ليعلق على ضريح السلطان صلاح الدين ابن أيوب ، فتقرر أن يحتفل في الجامع الأموي بوضعه ليلة القدر من سنة 1333 (أيلول سنة 1915) ، وأن يخطب في هذه الحفلة الدكتور شهبندر باللغة العربية ، وخلوصي بك (والي دمشق) باللغة التركية ، والبارون أوبنهايم مندوب الامبراطور غليوم باللغة الفرنسية ، ويختم الحفلة أحمد جمال باشا بخطبة باللغة التركية . وانتهز الدكتور الشهبندر الفرصة وتكلم عن تاريخ صلاح الدين ، وعدله ، وسعة صدره وإنصافه حتى في معاملة أعدائه وقال : « وما على جمال باشا ، إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه ، كما حفظ اسم صلاح الدين ، إلا أن يسير على منواله » ، وما كاد ينتهي من خطبته حتى تقدم جمال باشا غير متقيّد بالنظام الموضوع للحفلة وقال : ليس السلطان صلاح الدين الذي أسهب في مدحه الدكتور شهبندر الخليفة الوحيد في عظمته ، بل إن التاريخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء أيضاً مع أنه فتك بأخوته ، وبأهله وبرجال دولته ؛ لأنه وجدهم تآمروا عليه وهددوا المملكة الإسلامية ، وسيأخذ القانون مجراه في معاقبة الذين تجرّأوا على معاداة الدولة والتآمر على سلامتها » . وكان الشهبندر قد رمى إلى التماس الإنصاف للذين اعتقلهم جمال باشا بتهمة خيانة الدولة ، فجاء الردّ نزقاً فيه إصرار على وجوب معاقبتهم ، والمضيّ في التنكيل بهم إلى آخره . ولا راد لحدّة مزاج الباشا كما كان معروفاً عنه ؛ لذلك خاطب خلوصي بك الدكتور شهبندر « راجياً منه ألا يثير مسألة المعتقلين ثانية ، وألّا يعود لمثل هذا البحث أمام جمال باشا . فهل لاذ الباشا بالسكوت عن غيرهم ، إن لم يسكت عنهم ؟ بالطبع لا ، فخلال أشهر قليلة اتخذ التدابير بحق الضباط ووحداتهم ، فأرسلهم إلى

ميادين القتال ؛ لأنهم شكلوا عنده « إمكانية » انتقام لما اقترفه ، أو لما سيقترفه بحق أبناء وطنهم . بمعنى أنّ إقصاء العسكريين العرب كان مرحلة لا بد منها ، لإخلاء الجوّ من أجل مزيد من الإجرام ، والإرهاب في بلاد الشام . وليس هذا ببعيد عن الواقع الذي كرّسه جمال باشا إذ « أمر بإقفال مكتب « صفّ الضباط » الذي فتح في دمشق بعد الحرب الأوروبية وكان فيه نيف وخمسمئة ضابط من خيرة شبّان العرب . فلما تمكّن من إبعاد الضباط والجنود العرب عن سورية والعراق ، وإقناع بعض أحرار العرب وزعمائهم وقادة آرائهم بقبول مناصب ملكية وعسكرية في خارج البلاد العربية أماط اللثام عن حقيقة حاله وقلب للعرب ظهر المجنّ فنصب المشانق وفتح أبواب السجون وطرق المنافي . . . . » .

* * *

ثانياً : والملمح الثاني هو الروح العدوانية ونمو دافع الإجرام ، إذ يلوح لنا أن شخصية جمال باشا ذات المضمون المزاجي المعرض للانفجار في أية لحظة ، تدرأ اضطرابها الداخلي الناتج عن خوفها من ذاتها ، بوشاح من الفوران الخارجي الذي يبدأ بظواهر بسيطة للايهام بالقوة ، وينتهي إلى نقل القوة الانفجارية إلى حيّز الفعل . ومن ثمّ تتحول الشخصية إلى أداة تنفيذ لدافع الإجرام ، ولا سيما إذا كانت تسند العدوانية أفكار دوغمائية كالعنصرية ، والعرقية ، والتعصب وما شابه ذلك . ففي السند الايديولوجي تكمن مسوغات العدوانية والجريمة معاً . وتأتي السلطوية لتعزّز هذه المسوغات بتعزيز الأمن الداخلي للذات العدوانية . وهذه العناصر داخلة في تكوين شخصية جمال باشا ، وفي انعكاساتها الخارجية على وجهه ، وفي عينيه ، تارة بصورة صراخ ، ووعيد ، وإبداء عدم الخوف من أحد ،

وتارة أخرى بصورة فرض السيطرة الحاسمة على المواقف دون أيّ تراجع ، وفي هذه الحال يبدو عناده ـ كما يرى المحللون النفسانيون ـ وكأنه إشراق للإرادة القوية ، وهو ـ في حقيقته بعيد عن أن يكون فعلاً للإرادة باعتبارها قوة نفسيّة . فكيف تجلّت عدوانيته أوّلاً ، وإجرامه ثانياً في سلوكه مع العرب ؟

هناك مستويان باستطاعة الدارس أن يميّزهما في عدوانية جمال باشا : عدوانية الخطاب التي يمكن اعتبارها توفزاً راهناً لموقف آني تتولد محرّضاته في لحظة الانفجار ذاتها كما حدث عندما ردّ الباشا بعصبية حادّة على الدكتور الشهبندر ، وكما كان يحدث له غالباً على الرغم من محاولاته الجاهدة للاحتفاظ بحدّ أدنى من التماسك الخارجي . وقد يكون من المفيد إيراد علائم العدوانية لديه على أثر سماعه باندلاع ثورة الملك الحسين في الحجاز ، فبدل البحث عن دواعي الثورة ، والنظر فيما فعله كيما تصل الأمور إلى هذه النهاية بين العرب والدولة العثمانية ، انبرى الباشا يغلي ويفور حانقاً على شخص الشريف حسين وفق ما يصف لنا فارس الخوري في أوراقه : « كان جمال باشا ثائر الأعصاب ، محروق الفؤاد من ثورة الملك حسين ، فأكثر من التنديد والطعن بهذا الشيخ الجليل ، وأطلق أقلام أعوانه في جريدة « الشرق » وفي المناشير التي أذاعها بالقذف والقدح به . . » . وتناسى أنه كان يحاول قبل شهر واحد أن يجتذبه ويأمن جانبه كيلا يقوم بعمل مناهض ضد الأتراك ، ولما اشترط عليه الشريف حسين أن يصدر عفواً عاماً عن الأحرار المعتقلين ، أدار له ظهره ، وأعدمهم . ولما قامت الثورة تصوّر أنّها تعنيه ، وستقوّض أحلامه الشخصية لتبنى أحلام شخصية مقابلة هي شخصية الشريف . ولذلك راح يروّج خطاباته ، وخطابات أعوانه المدّعية

أن هذه الثورة العربية لم تكن لأجل تحرير العرب ، بل كانت من الحسين وأنجاله لأجل تأمين الملك لهم والظفر بمنافعهم الشخصية . وبهذا الزعم أسقط ما كان ينويه على هموم أمّة تريد أن تتحرر ، وهو يأبى ألاّ يجد فيها طموحاً ضئيلاً لفرد واحد !!

ونحن هنا لا نبرز ، بالطبع ، إلا ما يتعلّق بالوجه الظاهري للعدوانية بصفتها عاهة نفسية توهم بعدم وجودها من خلال أقنعة منها الثوران ،والعنف ، والغضب ، والتبجح . ولكنها في حقيقة الأمر غير منفصلة عن الطباع الشاملة للشخصية ، مما يرجعنا للبحث فيما هو أعمق عبر عدوانية الموقف التي تنهار أمامها الأقنعة كلها .

قد تتماهى العدوانية على هذا المستوى مع الغدر ، والسلطوية ، والاحتيال ، والحقد ، إنما يبقى سياق الأحداث هو الكلمة الفصل في فرزها النسبي عن الملامح الأخرى للشخصية . ولبيان ذلك بدقة سنتناول مجموعة مواقف دالة على ذلك ، منها مثلاً :

آ ـ عندما عجز أحمد جمال باشا عن إقناع الشريف حسين بأن المتهمين جميعهم خائنون للدولة العثمانية ، سعى إلى التملص من المفاوضات عن طريقين : الأوّل تعجيل تنفيذ حكم الإعدام بالمعتقلين ، والثاني اتهام الشريف وولده علي بمحاولة الخروج على محافظ المدينة المنورة (بصري باشا) ، وذلك ليتسنى له أن يوقف الشريف حسين عند حدوده ، ويجعله ينصاع بسياسة الأمر الواقع . ومن أجل ذلك طلب من « فيصل » الذي قدم إلى دمشق لطلب العفو عن المعتقلين ، أن يستدعي أخاه علياً إلى دمشق ، وبيّت في نفسه أنه سيرهنه مع أخيه ، ويأمن أية محاولة ضد

العثمانيين يقوم بها الشريف حسين في الحجاز : « وكان جمال باشا يريد من استقدام « علي » إلى دمشق أن يقرنه إلى أخيه « فيصل » فيظلان رهينة لديه يمنعان أباهما من الإتيان بأي حركة ضد الدولة ، وتلك كانت الغاية من استقدام فيصل » . واستطاع فيصل أن ينجو بأعجوبة من حبائل الباشا ، ووعده بأنه سيسافر إلى المدينة ليكون على رأس المتطوعين لحملة القناة ، وقد أعرب جمال باشا في مذكراته عن شديد الأسف لأنه لم يرتهن فيصلاً لديه ، مع أن المفاوضات بين الطرفين كانت سارية المفعول . وكان الباشا سيجعل من رهن علي وفيصل بداية لتأهب الجنود الأتراك في المدينة والانقضاض على مكّة ، والقضاء على الشريف في عقر داره . ذلك أن جمال باشا بعث ـ فيما بعد ـ فخري باشا ،وكيل قيادة الجيش الرابع للإشراف على كيفية تسيير المتطوعين إلى القناة ، وكان في المدينة آنذاك قوة عسكرية مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي ، عزّزت بنجدات جديدة أخرى « تحت ستار إرسالها إلى اليمن » ، مما زاد في مخاوف الشريف وأولاده ، لأنهم أدركوا أن حشد هذه القوة معناه أن الترك يريدون الفتك بهم وضربهم الضربة القاضية . . » . وما كان أمام الشريف إلا أن يعجّل في إعلان الثورة قبل أن يضرب جمال باشا ضربته هذه .

لقد كان جمال باشا يحسب حساب الشريف ، ومدى تأثيره في السوريين ؛ لذلك قطع الطريق أمام مساعيه بتفرقة الضباط العرب ، وإرسالهم إلى جبهات القتال ، ثم ضيّق التفاوض معه إلى درجة اتهامه بأنه يريد الحجاز له ولأولاده ، ويخطط للخروج على سلطة الدولة ، كي يفتح ثغرة في موقف الشريف ،ويقضي عليه ؛ لأنه سيكون مزاحمه على مملكة بلاد الشام ومصر . وفي هذه الصورة التي رسمها لنفسه تقبع أسرار عدوانيته على

العرب عامة ، وعلى الشريف حسين خاصة ، وهي عدوانية تبين مقدار الإسفاف والانحطاط الأخلاقي المنافي لآداب السياسة وأعرافها ، والمنقلب إلى الرفس ، في المهاترة والطيش على نحو ما نقرأ في خطبته في أثناء المأدبة التي أقيمت تكريماً لرئيس مجلس الشورى العثماني ، وكان الشريف حسين قد أعلن الثورة محطماً فكرة الجهاد الإسلامي العام التي كان العثمانيون يستندون إليها أيّما استناد ، فقد قال ، وهو في فورة بالغة من التبجح والغضب : « من المؤسف أن امرءاً دنيئاً قد عطّل الجهاد المقدس في صميم الأرض الإسلامية المقدّسة حين حالف القوى المسيحية التي تسعى إلى ابتزاز العالم الإسلامي ، واستلاب القسطنطينية عاصمته . أما ذلك الفرد الخسيس الذي دفعته القحة لأن ينسب نفسه إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه فقد اضطر الدولة العثمانية إلى أن توجّه إليه قوى كان من الحق أن توجّه لتهزم البريطانيين في القناة ، وتحتل القاهرة . إن هذا الخائن لم يقم بما قام به إلا خدمة للبريطانيين ولكن ذلك كله لن يحول بين الإسلام والنصر (. . .) وحزّ رأس ذلك الدجّال في مكّة » . يقول ذلك وكأنه يجهل ما فعل كي تنقلب الأمور إلى هذا المنقلب !!

ب ـ وفي الدرجة الوسيطة بين الشكل البسيط للعدوانية الهادفة إلى تعزيز السلطة « والإجرام الذي سنفرد له حديثاً مطولاً ،نجد ضرباً من عدوانية الموقف ضد العرب ذات صلة وثيقة بالبرنامج « التتريكي » الذي عهد إلى جمال باشا بتنفيذه في البلاد العربية ، كما عهد إلى طلعت باشا بتنفيذه في المناطق الأرمنية . وقد قام الزعيمان الاتحاديان بتبادل فريد من نوعه في التاريخ الحديث ، وهو تبادل المهجّرين حيث تمّ ترحيل العائلات العربية لتقطن في منازل الأرمن الخالية من سكانها ، وقد تم ترحيل الأرمن

بأكملهم ليقطنوا في قبور جماعية ، أو في مناطق العرب إذا كتب لهم النجاة من الصحراء . وهكذا شمل النفي والإبعاد « نحو ثلاثمئة أسرة من أسر الشام (سورية وفلسطين ولبنان) ، قبض على أعضائها نساءً ورجالاً وأطفالاً بأمر جمال باشا في شهري آذار ونيسان سنة 1916 ، وأرسلوا إلى الأناضول ، أي قبل صدور الأحكام ، بعدما صودرت أملاكهم وأموالهم ، فوزّعوا في مدنه وقراه قاصيها ودانيها ، فمنهم من أرسل إلى أنقرة ، وغيرهم إلى ديار بكر وبروسة وأضنة وسيواس وقسطموني حتى لم تبق مدينة من مدن الأناضول إلا نزلتها أسرة أو أكثر من الأسر السورية » وتجدر الإشارة إلى أن جمال باشا لم يهجر سوى الأسر الغنية والكبيرة التي كانت تتوفّر فيها إمكانية التعليم والدعوة إلى تراص الصفوف العربية ، فإذا ما فرّقها يؤدي إلى إضعاف العصبية العربية في بلاد الشام باقتطاع هذه العناصر القوية من جسمها ، فتترّك ،وتفقد قوميتها وتندمج في الطورانية » . والغريب أن جمال باشا يعزو هذا العمل العدواني المتوحش إلى أسباب اقتضتها تدابير احتياطية ، وانه إنما أرسل الرجال مع نسائهم وأطفالهم لكي يعيشوا بشكل أسرة ولا يكونوا في حال سيئة . إنه السيناريو ذاته الذي اعتمده طلعت باشا في إبادته للأرمن عن طريق تهجيرهم ، أو إجبارهم على أن يصيروا أتراكاً بعد أن يجردونهم من كل ما يملكون .

ج ـ وفي درجة أعلى لـ « عدوانية » جمال باشا ، لجوؤه إلى سياسة تجويع الشعب في سورية ولبنان وسائر البلاد ، تارة بفرض الضرائب والعلاوات ، وطوراً بمصادرة المحاصيل والمواشي بحجة تموين الجيش المحارب . مما أدى إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً جنونياً أوقع الناس في فريسة للموت جوعاً ، إذ قدّرت الصحف عدد الذين ماتوا في لبنان وحده بخمسة

وثمانين ألفاً خلال ثلاثة أشهر ، أما الذين بقوا على قيد الحياة فكانت وجوههم قاتمة شاحبة ، وأبدانهم هزيلة وبطونهم خاوية » ، يدورون في سوق لا حركة فيها ولا بضائع ، والبضائع مستحيلة على التأمين أمام العثرات التي وضعها جمال باشا « فالقمح وسائر الحبوب قلّت جداً لانقطاع وسائل النقل بعدما صادرت الحكومة الخيل والبغال وغيرها من الدواب لقضاء حاجات الجيش ، فارتفعت الأسعار حتى صار الناس يطلبون الخبز فلا يجدونه إلا بقدر ، وهذا الخبز أسود قذر تعاف النفس رؤيته . ومع ذلك فثمن الرطل الشامي 17 غرشاً . وإذا سعى موسر وفاز بشراء كيس من الدقيق فلا يجترىء أن ينقله إلى منزله خوفاً من أن يهجم الناس عليه ، ويتخاطفوه كما جرى مراراً » ، ويضيف الاستاذ أسعد داغر واصفاً ما رواه له أحد الثقات عن أحوال الناس في مدينة بيروت ، والمجاعة تفتك بهم : « فكيف جلت ببيروت ، وأين أدرت نظرك رأيت رجالاً ، وأطفالاً ، ونساءً ، عراة حفاة يشكون من ألم الجوع جهاراً ، يقفون أمام كل من يدخل مطعماً من المطاعم القليلة الباقية مفتوحة ليأكل فيه ، ويغبطونه على كل لقمة تدخل إلى فمه » .

ومن الروايات التي تبعث القشعريرة في الأبدان أن أحد القادمين إلى لبنان رأى بعينيه ، وهو على الطريق بين بيروت وطرابلس ، جماعات من البشر ملقاة على الطريق ، فيها أناس خائرو القوى ، نحيلو الأبدان ، ونساء وأطفال قد رقّت أجسامهم حتى صارت كالخلال ، يتألمون من الجوع ، ويقول إن قائمقام قضاء من أقضية شمالي لبنان « أخبره أن عنده 600 نفس يتضورون جوعاً وقد ضاقت به الحيل في تدبير طعام يحفظ به رمقهم قال : وما نبتت البقول في الحقول حتى انتشرت النساء والأولاد

فيها لجمع الأعشاب البرية وجذور الشجر التي يقتاتون بها الآن » . هذا وقد تعاضدت سياسة الاتحاديين العامة التي كان ينفذها جمال باشا ، من قطع الغابات ، ومصادرة الأرزاق ، وسلب نقود الناس واستبدالها بعملة ورقية ، مع هجوم الجراد سنة 1915 ، والتهامه للزرع ، فزاد البلية بليّة أخرى . ويورد الاستاذ داغر تعليقاً على هذا الواقع المرير : « واللبيب الذي يتدبر بلايا الجراد وبلايا حكومة الاتحاد والترقي لا يستغرب بعدها أن البلاد التي عرفت منذ قديم الزمان بأنها بلاد تفيض لبناً وعسلاً ، واشتهرت باليسر والرخاء في الأقطار ، وعرفت شرقاً وغرباً بقرى الضيف ، وإيلام الولائم تمسي بلاداً خيّم العسر ، والضيق عليها ، وضرب الفقر والجوع أطنابه فيها حتى صار فقراؤها يتزاحمون على قشور الليمون والبرتقال ومصاصة قصب السكّر لكي يقتاتوا بها بعدما بارت فيها التجارة ، ووقف دولاب الصناعة ، وقلّت الأيدي العاملة في الزراعة » .

وقد كرّس واقع الجوع والحرمان انتشار الأوبئة والأمراض القتّالة إذ انتشرت حمّى التيفوس في طول البلاد وعرضها (من حلب إلى حمص وحماة وطرابلس حتى اتصلت بدمشق وما جاورها) . وكانت البلاد خالية من الأطباء الذين أبعدهم جمال باشا لخدمة الجيش ، وخلت الصيدليات من الأدوية والعقاقير . وكانت النتيجة أنّ عدد الأموات بهذه الحمّى بلغ في حلب وحدها ثمانية آلاف ، وفي طرابلس مات في يوم واحد ستون شخصاً .

ولم تكن هذه السياسة بخافية على العالم ، فقد كتب عنها المبعوثون الأجانب ، ونشرت صحفهم عنها أخباراً عديدة ، فالقنصل العام الأمريكي يبعث بمذكرة إلى حكومته في الخامس عشر من تموز سنة 1916 ، جاء

فيها : « حال الفقراء في هذا البلد تستثير الحزن والرثاء ، فالشوارع مكتظة بأطفال ونساء ساغبين . . . والحكومة متلبدة الإحساس نحو آلام هؤلاء المساكين ؛ ثم هي لا تسمح للصليب الأحمر الأمريكي بمدّ يد العون إليهم ، وكثيراً ما شاهدت أثناء تجوالي في الأصائل جثث الموتى على قوارع الطريق » . وفعلاً كان رجال جمال باشا يمنعون الأمريكيين من جمع الإعانات من المحسنين في بلادهم ليوزعوها على الفقراء أجرة لعملهم في إصلاح طرق المدن ، أو في غير ذلك من الأعمال النافعة . ويحكى أن « أمريكياً التفت إلى الموظف الاتحادي الذي كان يمنعه من إغاثة العثمانيين المرهقين في بر الأناضول وقال له : إذا امتنعنا عن إغاثة هؤلاء المساكين ماتوا جوعاً . فغضب الموظف الاتحادي عند سماع كلامه وقال له : « وهذا عين ما نقصده » .

وكتب مراسل محايد مقالاً نشرته صحيفة « التايمز » ، يصف فيه حال العرب السوريين تحت نير التجويع ، وذلك قبيل مغادرته لسورية : « إن حال أهالي سورية مما لا يكاد يصدق . . . هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لإرهاب جديد ويقدّر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سورية بين الستين ألفاً ، والثمانين . . . » . وفوق ذلك كله ما برح جمال باشا (والصحف التابعة له) يسمي حركة الشريف حسين عصياناً فردياً أثارته مؤامرة بريطانية وقام بتنفيذه رجل دجّال » .

إنّ ما وصفه زائرو سورية ولبنان من أحوال النساء والرجال وهم يلتهمون قشور البطيخ والليمون من الأوحال ، ويبتلعون التراب من هول الجوع ، ليذكرنا بما وصفه أمثالهم عن أحوال الأرمن وهم يلتهمون الحيوانات في عرض الصحراء ، ولما لم يبق معهم دواب ، شرع بعضهم

يقتات من لحم بعضهم الآخر كي لا يموت الجميع . وأحمد جمال باشا الذي راح يشيع بين الناس أنه ضد إبادة الأرمن كان يمارس إبادة العرب بطريقة طلعت باشا ذاتها . وما الفرق بينهما إن كانت خطتهما العنصرية واحدة أملتها عليهما مبادىء الطوارنية والبانتركية ؟ !

إذاً لا غرو إذا قلنا إن عدوانية هذا الإنسان المتوحش حولت البلاد إلى يباب مقفر ، إذ طالت حتى أشجار الزيتون لا ستخدامها في مدّ سكة الحديد ، وقطعت الغابات ،وهدّمت القرى على أصحابها بحثاً عن جنود يحاربون إلى جانب العثمانيين . ذلك أن الباشا « فرض على كل قرية من قرى لبنان عشرة جنود ،ولربّما كان ذلك مقدّمة لتجنيد الباقين في قيد الحياة من اللبنانيين » .

* * *

(د) أما دافع الإجرام الذي يشكّل جوهر شخصية جمال باشا ، فهو يقوم على أعمدة العدوانية بصورتها المتطرفة المجرّدة من الرحمة والمشاعر الإنسانية الخليقة بجعل الشخصية كائناً بشرياً . ودليلنا على ذلك ليس اصطناع التهم للإفضاء إلى القتل بموجب علّة تسوّغه كما فعل جمال باشا عشية اعتقاله للوطنيين العرب ، إنما اندماج القتل بطبيعته حتى كأنه منه طبيعة ثانية لا زمته منذ نعومة أظفاره ؛ وأبدى أن أحداً لا يجاريه في فنون القتل والاغتيال ، ولا يبلغ أدنى مستوى من جرأته على سفك الدماء . فهو مشهور بذلك سواء عندما كان والياً على أضنة ، أم عندما نظّم مؤامرات الاتحاديين إثر انتصار الائتلافيين ، أم عندما كان مدير فرع الجواسيس والفدائيين في جمعية الاتحاد والترقّي . أما عن فتكه بالأبرياء من الناس فقط لأنهم ليسوا من هذه الجمعية ، فحدّث ولا حرج . فبإسم البحث عن قاتلي

محمود شوكت باشا حشر في السجون ، ورمى بالرصاص كل أولئك الذين راق له أن يعلّمهم من هم الاتحاديون ، وقد قال يفتخر ذات يوم « إنّ الإعدام عادة من عاداتي اليومية ! ! » . فهل نسلّم ، من بعد ذلك ، بأنه عندما وصل إلى بلاد الشام لم يكن في نيّته أن يمارس القتل ضد العرب ، وإذا صحّ وسلّمنا بهذا الزعم البريء أو الضارب في السذاجة ، فما دواعي اعتقال الوطنيين الأحرار ، وتعليقهم بمحاكمة صورية ، أو من دون محاكمة على أعواد المشانق ؟ !

على رأس الدواعي التي لا نكاد نعثر على واحد حقيقي منها ، أن الجنود الأتراك عثروا على أوراق ورسائل في قنصليتي فرنسة في بيروت ودمشق ، وكان فيها معلومات عن اتصالات سرية بين فرنسة وبعض رجالات العرب هدفها الانفصال عن الدولة العثمانية . يضاف إلى ذلك بعض « الكتب السرية التي ظلّ حقّي العظم يرسلها حتى بعد إعلان الحرب العظمى ، وقبل اشتراك الدولة فيها إلى محمود المحمصاني في بيروت » وقد تمت مصادرتها ،وتسليمها إلى قائد الجيش أحمد جمال باشا . ومن المعروف أن العظم كان ينتمي إلى حزب « اللامركزية » الذي سمح العثمانيون برواج أفكاره في البداية ، غير أن الأستاذ أمين سعيد يرى أن العظم استغل هذه الناحية ، وكتب تلك الرسائل دون علم من زملائه في الحزب ، ودون أن يأخذ رأيهم « ولو فعل لما أقروه ولما وافقوه ولا سيما أن العلاقات فترت بينهم وبينه فتوراً ظاهراً في تلك الأيام » ، ويعلل سر إرسال هذه الكتب بأن حقي العظم كان يستثير الاتحاديين كي يسترضوه ، ويعيّنوه في إحدى الوظائف .

هناك إذاً سبب مركزي واحد : جهد العرب ونضالهم للتخلّص من

الحكم التركي الذي يمثل الدولة العثمانية السائدة على بلادهم ، باعتبارهم جزءاً منها . فإذا كان الأمر كذلك ، فلم لم يقتصر الإعدام على بضعة الأسماء التي وردت في أوراق القنصلية وفي رسائل حقي العظم ، ولماذا استمرت عمليات الإعدام حتى بعد الانتهاء من مسألة الأوراق والرسائل ؟ ! وعلينا أن نعرف أن جرائم القتل المرتكبة بحق الزعماء العرب امتدت على ما يقرب السنتين ،وتناولت ثلاث قوافل من المتّهمين :

1 ـ الأولى انتهت بمصرع أحد عشر شاباً في 20 آب سنة 1915 بقرار ديوان الحرب العرفي في عاليه ، برئاسة الميرالاي فخري بك الأعرج .

2 ـ وانتهت الثانية بمقتل (23) رجلاً من أعيان البلاد في ربيع سنة 1916 بحكم الديوان نفسه ، برئاسة القائمقام شكري بك .

3 ـ قامت الثالثة على التعذيب والتنكيل في خان الباشا بدمشق من أوّل تموز سنة 1916 حتى آخر كانون الثاني سنة 1917 ، برئاسة فخري بك . وكان أحمد جمال باشا المشرف على تنفيذ هذه الجرائم ، والمراقب لدقة التنفيذمن أجل إشباع دافع القتل الذي صار « طبيعة ثانية » فيه ، أو « عادة من عاداته اليومية » ! ! فكيف تجلّت هذه الطبيعة الثانية بجذورها العدوانية التي مهّدنا لها في الصفحات السابقة ؟ !

ـ كان من بين المحكومين بالإعدام سليم الجزائري ، وأمين لطفي ، وهما من كبار ضباط الجيش العثماني ، ومن أركان حرب الجيش ، فلما سمع رضا باشا من الشرطي إسمي الضابطين هرع إليهما في دار الشرطة ، وانفرد بهما مدة نصف ساعة ، « وكان المرحوم أمين لطفي في أثناء المقابلة يتكلم

بلهجة قوية ويقول لرضا باشا :

ـ ليقل لنا الديوان العرفي على الأقل كيف حكم علينا بالإعدام . لماذا لم يستنطقونا ؟ ولماذا لم ايسمعوا كلامنا ؟ أهذا هو جزاء خدماتنا للدولة ؟ وآخيراً قال لهما رضا باشا : ـ سأخابر القيادة العليا بشأن العفو عنكما . وجلس حالاً إلى التلفون وطلب فجاءة مخابرة جمال باشا ، فأجيب أنه متغيّب وأنّ فخري باشا وحده في القيادة ، فطلب محادثته ، ودامت المحادثة عشر دقائق حاول رضا باشا في أثنائها طلب العفو عن المرحومين بصفة كونهما من كبار ضباط الجيش غير أن الجواب كان يرن دائماً من بوق التلفون بهذه الكلمة : ـ أولماز (غير ممكن) . ولما يئس رضا باشا من استجداء العفو عنهما التفت إلى سليم الجزائري وقال له متأثراً : ـ ماذا تريد أن أفعل بعد الآن ياصديقي ! تعال أنت وخاطب فخري باشا . فاقترب سليم من آلة التلفون وطلب مخابرة فخري فلم يسمع غير هذه الكلمة ـ أولماز ! ! فرفع يده مهدّداً غاضباً ، ورمى الآلة فحطّمها والتفت إلى رفيقه وقال له هلمّ بنا . . . وتقدّم رضا باشا من المرحوم سليم الجزائري فصافحه ، وعاد أدراجه ليحضر مشهد إعدامه بصفته الرسمية . . » .
وقابل هذا الضابط المشهور باحترامه للنظام ، وبهيبته في الجيش العثماني ، الموت وهو لا يعرف أن مجرّد كونه « ضابطاً عربياً » يدمغه بالجريمة دمغاً حتى لو كان الضباط الأتراك » يحترمونه ويهابونه وهو في الديوان العرفي سجين ، بل إن رهبتهم منه لم تنقص حتى ساعة إعدامه » ! ! وما ينطبق على الجزائري ينطبق على المرحوم أمين لطفي أيضاً . وفي هذه العلة (أي الانتماء إلى العروبة) يقبع شرح كلمة « أولماز » التي تترجم جانباً مهماً من جوانب العدوانية الاجرامية لجمال باشا الذي سخّر فخري باشا ليتكلّم عنه بهذا

الجلاء !

- إذا كان رضا باشا قد شعر بالحرج من صديقيه الضابطين في الجيش ، فإن رجال الشرطة الذي أوكل إليهم جمال باشا إعدام الزعماء العرب ارتكبوا ما لا يقرّه عرف إنساني من فظائع وقسوة . من ذلك مثلاً أنّ عمر حمد خاطب رضا باشا ومدير الشرطة باللغة الفرنسية : « إني أكلمكما باللغة الفرنسوية لأنكما لا تفهمان العربية فبلغا حكومتكما الظالمة ان هذا العمل الذي تعمله الآن سيكون سبباً في خرابها وتقويض أساساتها . ثم التفت إلى الحاضرين وقال باللغة الفرنسية : - إني أموت غير خائف ولا وجل . أموت فداء الأمة العربية ، فليسقط الأتراك الخونة وليحيى العرب . ولما وصل الشهيد إلى كلمة « فليسقط الأتراك الخونة » اشمأزّ منه الموكّل بأمر إعدامه فضرب الكرسي من تحته قبل أن يتمكن الحبل من عنقه فأهوى المسكين إلى الأرض وهو بين حيّ وميت ، فما كان من لؤم ذلك الوحش إلا أن وخزه بسيفه شاتماً لاعناً ثم حمله مع رفيق مثله ووضع الحبل في عنقه رغماً عن سيلان الدم بغزارة من جرح بالغ أصابه في رأسه أثناء الوقوع والضربة » . فما كان من عبد الغني العريسي إلا التدخل ليقول لمأموري الحكومة المتفرجين دون مبالاة : « عار عليكم أن تعذبوا المحكوم بالإعدام إلى هذه الدرجة ، إن الإنسانية ستنتقم منكم على هذه الأعمال » . فشزره الشرطي بخشونة ولؤم قائلاً بشراسة : هذا لا يعنيك ومن يخن دولته ينله أكثر من ذلك . وعجّل بموته دون أن يتيح له فرصة الكلام (. . .) وعجّلت الشرطة بإعدام المرحوم الأمير عارف فلم يتركه يتكلّم أكثر من بضع كلمات . . . » .

ومما نقله الكاتب الفاضل « الرحالة » إلى جريدة المقطّم مارواه له

شاهد عيان وصل إلى القاهرة سنة 1916 « أنّ ابنة المرحوم رشدي بك الشمعة كانت مصابة بالحمى المعوية قبيل صدور الحكم على والدها ، فأمر جمال باشا بإبعادها مع بقية أفراد الأسرة قبيل التنفيذ بنحو أسبوع ولكنّ الطبيب استرحم وأظهر ما في هذا الأمر من الخطر على حياتها ، إلا أن أحمد جمال باشا « المسلم الصراح » الذي لا تشوبه شائبة أصرّ على رأيه وأصدر الأمر بنفي أسرة رشدي بك الشمعة مهما يكن مرض كريمته خطراً ، فحملت على ظهور الرجال وسيقت هي ووالدتها وأخوتها إلى محطة « البرامكة » ومنها إلى محطة « رياق » حيث أطلّ أخوها الصغير من الشباك عرضاً فرأى أباه في قطار بيروت آتياً من عالية ليشنق في دمشق مع من سيشنق في ذلك اليوم ، فصرخ الوالد صراخ الفطيم عندما يرى مرضعه الحنون ، وصار ينادي « أبي ! أبي ! » ومدت مريضتنا رأسها من الشباك لتتحقق هذا الحلم بنفسها ، فرأت والدها يبتسم في وجه ولده ابتسام المحروق على تقبيله ، فصاحت من شدّة الانفعال ، وأرادت أن تخاطبه وتودّعه الوداع الأخير وتطلب رضاه ، ولكنّ الجندرمة الموكول إليهم حماية « المؤمنين » في هذا « الجهاد المقدّس » لكموها على وجهها فسقطت على المقعد أمام عينيّ أبيها الذي بقي مبتسماً ابتسامة الاحتقار ، وما أمسى المساء حتى فارقت الحياة قبيل وصولها إلى حماة وهي تشير بيديها وفمها من غير وعي كأنها تقبل الأيدي التي طالما حملتها في صغرها ! » .

ـ ومن أهوال التعذيب التي كتب عنها فارس الخوري ننقل ما فعله رجال جمال باشا بمن ذكر عبد الغني الرافعي أسماءهم كاذباً أو مجبراً تحت سياط الجلد إذ قبضوا « على جميع الذين سماهم وعاملوا كثيرين منهم بأقصى درجات العنف والإرهاق ليعترفوا بالجرم وحينما وجدوا أن الضرب معهم

لا يجدي نفعاً ولا ينتزع إقراراً عمدوا إلى أساليب أخرى ابتكروها لهذه الغاية ، فأوقفوهم في ساحة الخان وأقاموا أمام كل واقف خفيراً يمنعه من الحركة والاستناد إلى حائط أو القعود على الأرض تحت طائلة الشجّ بأعقاب البنادق أو الطعن بالحراب ، فبقي هؤلاء البؤساء (القس مفيد عبد الكريم ، ويوسف أبو رعد ، ورفاقهما) أسبوعاً واقفين بلا نوم ولا حركة حتى تورّمت سيقانهم ، وخارت قواهم ، وظالموهم لا يشفقون ولا يرحمون . . . ما كنت أتصوّر أنّ الإنسان يستطيع أن يطيق العذاب إلى هذه الدرجة . . » . ويجب ألا ننسى أنّ التحقيقات المزعومة ، وأعمال التعذيب كانت تجري تحت عيني جمال باشا ، وبإشرافه ، ودليلنا على ذلك أنه استدعى شكري باشا الأيوبي ، في أثناء التحقيق معه ومع والده الضابط خالد بك الأيوبي ،وقال له : « إني أعفو عنك إذا أخبرتني بأسرار هذه الجمعية . . . . » فقال له شكري باشا : « المجرم لا يعفو عن البريء ، والبريء لا يقبل عفو المجرم ،فافعل ما تشاء ، وسيأتيك يوم تندم فيه على هذه الجرائم التي ترتكبها . فانتهره جمال باشا وأعاده إلى السجن . وكانت الوحشية قد بلغت حدّاً أمر عنده رجاله أن يضعوا في رجلي هذا الشيخ الجليل أرطالاً من الأغلال الحديدية ، وعلى كتفيه أيضاً ، وأكرهوه على التجوّل ساعات كثيرة تحت هذه الأثقال الباهظة في ساحة خان الباشا والزبانية وراءه يسوقونه بالعصي على مشهد من الجنود والسجناء وهو يرتدي بزّة أمير اللواء العسكرية ! وهو يقول لهم بأعلى صوته : « ليس العار عليّ بل عليكم أيّها الأنذال الجبناء ، وعلى الذين أمروكم بهذه الأفعال الشائنة » . وزيادة في فظائعهم جلدوا ابنه خالد بك الأيوبي أمامه « أكثر من ستمئة جلدة ، وأوقفوه على ساقيه 156 ساعة ليدلّهم على المكان الذي أخفي فيه والده الراية العربية ، وهو يصيح ويقسم لهم انه لا يعرف شيئاً عن هذه

الراية ولا عن مكان وجودها » . وماذا بعد عن نزيز الدافع الإجرامي المعادي للعروبة والعرب ؟

* * *

ليس فيما رويناه - حتى الآن - أي تعرّض عميق لمصداقية المزاعم التي حاكم بها جمال باشا أناساً متّهمين على أساسها . فغايتنا العميقة من معالجة هذا الملمح من شخصيته هي بيان التقهقر الداخلي فيها ، والانحسار الفاجع لمعانيها الإنسانية أمام غرائزه الشيطانية التي انساق وراءها يتخبّط في أغلال التعصّب ، ويمعن في الناس تعذيباً وقتلاً ، مسبّباً ألواناً من المآسي لمئات الأسر ، ولا غرو في ذلك طالما انعدمت الروادع لديه ، ومات حسّه الأخلاقي ، فخرج من عالم البشر إلى عالم الظلام وسفك الدماء ، فلم يصر مجرماً وحسب ، بل صار كائناً مولداً للجريمة ، ولهذا ينطبق عليه اللقب الذي أطلقه العرب عليه وهو « السفّاح » وما كان « السفاح » أيّنما وجد الّا عدواً للإنسانية والإنسان .

* * *

ثالثاً : والملمح الداخلي الثالث من ملامح شخصيته هو الدجل وتزييف الحقيقة إذ تطالعنا سيرة حياته ـ على كثرة الغامض منها ـ بكثير من الأفعال السوداء التي استطاع فيها أن يفرض الباطل على أنه حق ، والشرّ على أنه خير ، والجور على أنه عدل وإنصاف .

ويتماشى الدجل مع تركيبه الداخلي القائم على النطق بعكس ما يضمر ، مستخدماً اللغة لما هو أبعد من النفاق المكشوف أو التحتانيّة الغدارة ، إذ يوهم سامعيه بوجود نواميس في ذاته ، وقواعد أخلاقية متينة ،

وهو في الحقيقة يفتقدها ، ولا يعرف عنها سوى الإسم . ولعله آن لنا الآن أن نكمل عرض ما لاحظه الأستاذ ابراهيم صالح شكر بهذا الشأن إذ يستأنف كلامه عن خطبة الباشا التي ألقاها يوم تولى ولاية بغداد : « أما الرفق والعدل ، والرأفة والرحمة ، فإنه لم يفكّر بها ، ولم يحاول تجربتها ، وهو إنما ذكرها في « خطبته » تلك لأنها من الأدوات التي يحتاج إليها الخطيب إذا خطب ، والكاتب إذا كتب ، والمحتال إذا نصب . ومثلها كذلك الحق والإنصاف والمروءة ، فهذه وتلك « عناوين » لامعة وكلمات ضخمة يتخذها الساسة والدهاة لإغراء الغفل ، وإغواء السذج ، وتضليل البسطاء . . . » . ولو أن جمال باشا تلفّظ بهذه المفاهيم وهو لا يتحلى بشيء من مضمونها ، واقترب منها اقتراباً طفيفاً في سياسته لكان الأمر معقولاً ، ولكن الأعمال التي أقدم عليها في ولاية بغداد حيث أسمع الناس خطبته ،تشهد على تجرّده من أدنى الصفات القريبة منها ؛ إذ تعسف في البطش والنقمة والقسوة ، وليس هذا كل شيء فإذا كان « الدجل » زيفاً في الشخصية ، فإنّ ممارسة « الدجل » لا تكون زيفاً بل تزييفاً ،ولا تزييف إلا على حساب الحقيقة ،وما سنأتي به يوضّح مرامينا القريبة والبعيدة :

ـ في أثناء ولايته على بغداد جرت الانتخابات النيابية للدورة الثانية من اجتماع « مجلس المبعوثان » العثماني فمضى يضغط على الناخبين كي يعطوا أصواتهم لمرشّحي حزب « الاتحاد والترقّي » وتلاعب بالانتخابات إلى أقصى حدود العبث على الرغم من معارضة مجموعة كبيرة من الرجال الصالحين الذين عقدوا فيما بينهم عهداً على مقاومة تزييفه لحقائق الانتخابات ،ولما شعر بقوة شوكتهم ، أجهض عقدهم بلجوئه إلى الحيلة في مفاوضة واحد من زعماء المعارضة وهو عبد الرحمن أفندي النقيب ،على إخراج أحد أنجاله

نائباً عن بغداد ، فنجح في حيلته ،واتفق مع النقيب على نيابة محي الدين أفندي فكان « نائب بغداد » من غير سابقة مذكورة له بين الاتحاديين ، وعندما أمن جانب عبد الرحمن أفندي النقيب ، انقلب على أعضاء الكتلة التي تعاضدت على معارضة الاتحاديين ومقاومتهم ،وقضى عليهم واحداً إثر الآخر . وفاز الاتحاديون فخطب جمال بك خطبة عصماء عدّد فيه مآثر النواب الاتحاديين ، وأعمالهم في خدمة الدولة العثمانية ،ولا قى في الحفل من يتزلّف إليه ، وإلى جمعية « الاتحاد والترقّي » من مثل جميل صدقي الزهاوي الذي قال في خطبته بهذه المناسبة : « إنه يعيش اتحادياً ، ويموت اتحادياً ، ويلاقي الله بوجه الاتحاديين » ! أما حقيقة هؤلاء النوّاب فكانت شيئاً معاكساً لمصلحة العراق وأبنائه ، « فاسماعيل حقي بك البابان من أقطاب الاتحاديين في الآستانة ، وهو صنو حسين جاهد بك في تحرير جريدة « طنين » التي وصم العراقيين فيها بأنهم من « الحشائش الطفيلية السامة التي لا تستحق الحياة » (. . .) وكذلك المرحوم توفيق بك الخالدي ، فإنه من ضباط الدرك أيضاً ،ولكنّ جمال باشا عهد إليه بوكالة مديرية الشرطة في بغداد ليتسنى له إجراء الانتخابات على الصورة التي يطمئن إليها الاتحاديون ، فتمّ له ذلك في ظلّ الإرهاب والقسوة » .

ـ عند اخفاق حملة جمال باشا على قناة السويس سأل الباشا الضابط فون كريس (صاحب فكرة الحملة) عن موقفه إزاء الهزيمة ،فأجابه كريس أنّ الهزيمة واقع ،ولكن الشرف والمروؤة يقضيان بعدم التراجع وجرّ أذيال الذل ، فقال له الباشا : إذا لم يكن هناك أمل بالفوز ،فأنا أرفض أن تراق دماء الجند ، والضباط في سبيل الشرف والمروءة . ويحسب المرء أن جمال باشا إنما ينسحب حرصاً على حياة جنوده وضباطه أولاً ،واستجابة لواقعيته

في معالجة الأمور . على أنّ سبب انسحابه في هذا الوقت بالتحديد.، هو أن يعود معه قسم من الجيش كي يصدّق الناس ادّعاءه بالانتصار الساحق . وهذا ما حصل فعلاً ، إذ لم يتورع عند وصوله إلى فلسطين عن إصدار بلاغ رسمي يقول فيه : « إن القوات العثمانية قد انتصرت انتصاراً عظيماً على القوات الانكليزية » . فأين الحرص على حياة أفراد الجيش من هذا الهدف الذي سعى إليه ، ولا سيّما إذا قرأنا ما كتبه علي فؤاد بك عن أن جمال باشا لم يكن كثير الجزع لما أصاب الجيش من الخيبة ، ولعله كان ينتظر ذلك قبلاً ! » ؟ !

- وأبلغ الشواهد على تهتك إيمانه بالحقيقة أنه قام بإعدام الزعماء العرب ، ثم أصدر بياناً بإدانتهم ، وتفصيل أسباب إعدامهم بحجة أن زمن الحرب لا يسمح بالكشف الفوري عنها ، وفعلاً نشر هذه الأسباب في الفصل الثامن من مذكراته حيث تعرض فيه بالتفصيل لحوادث المحاكمة ، والأحكام الصادرة ، « شارحاً الاتهاماتِ المنسوبةَ للمحكوم عليهم كلاًّ بمفرده ، وألحقها بصور زنكوغرافية عن بعض الوثائق التي اكتشفها بين أوراق القنصلية الفرنسية في بيروت » ومن الرسائل التي صادرها في البريد ، حيث استند إليها في أحكامه القاسية بالإعدام والتعذيب على نحو ما ذكرنا سابقاً . وقبل أن نتكلم عن ملابسات هذه الأحكام وعدم قانونيتها المثبتة ، سنعطي مثالاً عن تدجيل جمال باشا السفاح ، والتزوير الغريب بحقيقة ما كان يحدث . يكتب فارس الخوري في أوراقه : « وقد زعم (الباشا) في المذكرات التي نشرها بعد الحرب أنَّ الذين اطلعوا على هذا الكتاب أو على بيانه الموجز دهشوا من فظاعة الجرائم التي ارتكبها أولئك الأشخاص حتى أن الشريف فيصل نفسه عندما قرأ بعض هذه الوثائق

صرح له أنه لم يكن يعرف ذلك ، ولو عرفه قبلاً لما اكتفى بصلبهم بل كان يفضل التمثيل بهم قبل الموت ؟ ! وهذا منتهى التضليل والتمويه بتزييف الحقائق ، واختلاف الأسانيد الكاذبة ،فقد سمعت أنا وسمع غيري من الشريف فيصل في ذلك الحين عكس ما يدعيه الباشا تماماً ، ورأيناه يبكي الشهداء بنفس سحقتها المرارة وعواطف هاجها حبّ الانتقام من الظالم الغدار . بل كيف يقول له فيصل هذا القول بينما كان والده المغفور له حسين قد ملأ الدنيا باحتجاجاته على تقتيل هؤلاء الشهداء الأحرار ظلماً وعدواناً ، وجعل هذه الفاجعة سبباً لقيامه بثورته العربية العادلة ، وشاركه بها الشريف فيصل بحال إعلانها » . وإنا لنتساءل : لماذا لم يطلع جمال باشا الشريف فيصل على جزء من هذه الوثائق ويقنعه بأنّ المتّهمين خونة ، عندما جاءه ملتمساً العفو عنهم ، وما داعي انتظاره إلى ما بعد الإعدام كي يسحب من فم الشريف احتجاجاً سافراً كالذي زعمه في مذكراته ؟ !

تدور أسباب إعدام القافلة الأولى من الشهداء حول محور واحد هو انتماء المتّهمين إلى الجمعية « اللامركزية » كما يسجّل جمال باشا نفسه في كتابه ، وسنقتطف منه بعض الشواهد على سبيل التمثيل لا الحصر :

1 ـ عبد الكريم الخليل : كان مع رضا الصلح في كلّ تحريكاته أثناء الحرب العامة ، وخلاف ذلك فإنه كان من الداخلين في جمعية « اللامركزية » وفي تشكيلاتها السرّية وسافر إلى مصر واشترك في مذاكرات اللامركزية .

2 ـ صالح حيدر : كان رئيساً لبلدية بعلبك ، وهو ذو نفوذ وسطوة في المنطقة التابع لها ، ووجوده على رأس بلدية بعلبك ساعده على تعزيز موقف الحزب اللامركزي ونشر الدعايات له . . . » .

3 ـ نايف تللو : كان من ضمن الداخلين في الجمعية ومعتمداً لها في البقاع . .

4 ـ محمد المحمصاني : أحد مؤسسي فرع بيروت اللامركزية . .

5 ـ محمود المحمصاني : كان من الذين دخلوا في اللامركزية وأحد دعاتها السريين . . .

فأي شيء هي « اللامركزية » ومتى تأسست ، ولأي غاية تهدف ، وماذا فعل الداخلون فيها قبل الحرب ، وخلال وقوعها ؟ !

تأسّس حزب اللامركزية في مصر من أعضاء الجالية السورية وهم رفيق العظم ،ومحمد رشيد رضا ، والدكتور شبلي شميل ، واسكندر عمون ، وسامي الجريديني ،وحقي العظم ،ومحي الدين الخطيب ، وجاء نصّ برنامجه في ثلاث وثلاثين مادّة ، قررت الثانية منها أن القصد من تأليف هذا الحزب بيان محسنات الادارة اللامركزية في السلطنة العثمانية للشعب العثماني المؤلف من عناصر ذات أجناس ولغات وأديان وعادات مختلفة ، والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الإدارية في جميع ولايات الدولة العثمانية . ونصت المادة الثالثة على أنّ هذا الحزب ليس خفياً ،وليس فيه ما يعد من الأسرار ، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد ، لاعتقاده يقيناً أنّ الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الإدارية .

ولم يكن الدخول في هذا الحزب مباحاً لأيّ كان لأنّ المادة الرابعة تشترط على كل عثماني بلغ العشرين من العمر ويرغب بالانتساب إلى حزب

اللامركزية أن يكون أولاً من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية ، ثانياً غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف . ثالثاً غير مشتهر بسوء النية . رابعاً أن يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب . ولا شيء يلزم المنتمي إلى هذا الحزب بالبقاء فيه إذا هو لم يبغ الاستمرار ، فله الحق والحرية في أن يستقيل منه في أي وقت شاء كما تقول المادة السادسة . فأين السلب في أن يكون عبد الكريم الخليل ، أو جقي العظم أو غيرهما منتسبين إلى « اللامركزية » ؟ ! طالما أن الدولة أجازت تأسيسه لأنه لم يكن يطلب ، كغيره من الأحزاب العربية « الجدية » سوى الإصلاح العام ، وأن يكون للعرب نصيب في الحكم على قاعدة اللامركزية ، فلا مسوّغ اطلاقاً لرمي أعضائه بتهمة الخيانة ، ذلك أنه « عندما أعلنت الحرب العامة ، ودخلت الدولة العثمانية فيها ، أجلت هذه الأحزاب في داخل البلاد مطاليبها ، وأوقفت كل عمل من شأنه إزعاج الدولة أو عرقلة مساعيها . فكانت البلاد السورية كافة متّفقة على النهج في خطة الإخلاص والمؤازرة إلى أن تضع الحرب أوزارها . وقد كرّر جمال باشا نفسه التصريح في مذكّراته بالثناء على السوريين وولائهم للعرش العثماني ، وتضحياتهم القيّمة بالمال والرجال في هذا السبيل بمفاداة لا تقل البتة عن مفاداة أخوانهم الأتراك إن لم تكن تفوقها » . وقد ثبت في أكثر من مصدر أن المنتمين إلى حزب اللامركزية من بين الذين تم إعدامهم لا يتجاوز الاثنين ؛ ففي قول للأستاذ رشيد رضا صاحب مجلة « المنار » ، وأحد زعماء حزب اللامركزية ، برهان على ذلك ، هذا نصّه : « ثم إن جمال باشا يقول إن التهمة الموجبة للقتل والنفي هي الاشتراك في جمعية غايتها جعل العراق وسورية وفلسطين مملكة مستقلة بعد سلخها من راية الدولة . ونحن نعتقد بطلان هذه التهمة بأدلة كثيرة (منها) أن الحزب الذي جعله موضعاً للتهمة التي رمي بها هؤلاء الذين اعترف الباشا بقتلهم

في هذا البيان لا يوجد فيهم إلا واحد أو أثنان من الداخلين في هذا الحزب (ومنها)أننا نعلم باختبارنا لبعضهم ، واختبار من نثق به للآخرين أنهم لا يجمعهم رأي ولا مودّة ولا سكنى ولا معرفة ، فكيف يتفقون مع ذلك على أمر عظيم كالذي اتّهموا به » ؟ وكان من بين المتّهمين أناس خارج البلاد حكم عليهم غيابياً وعددهم « 59 » رجلاً من أذكياء العرب ومثقفيهم . حتى لو صحّ أنهم كانوا ينوون الاستقلال عن الدولة العثمانية ، فما هي الشريعة التي تجيز المحاسبة على النيّة اللهم إلا شريعة ذلك القاضي الأحمق ، الواردة قصته في كتاب (ثورة العرب) لأسعد داغر ، إذ جاءه رجل وقال له إني أعترف لك بأني أنوي سرقة بيت فلان ، فحكم عليه بأقصى عقوبة السارقين ! وعلى ذكر مجافاة الحقيقة نتساءل ،كما تساءل كل من قرأ بيان الباشا ومذكراته ، ماهي التهمة الموجهة إلى سليم بك الجزائري الذي تحدثنا عنه ،وكان ضابطاً في أركان حرب الجيش العثماني ،ويقيم منذ أكثر من خمس سنوات في الآستانة ثمّ في أزمير ، كي يزجّ مع المشنوقين ، « ومثله المرحوم عبد الوهاب بك الانكليزي فقد كان مفتشاً في أنحاء الأناضول وجيء به إلى الآستانة ثم إلى سورية وقتل ؟ ! » . وما فائدة انتحال الأسباب غير التلذّذ باصطناع الإرهاب ، والمهارة في تنفيذه ، ولا سيما إذا كانت هذه الأسباب من الضعف بحيث لا يمكن أن تثبت للحجة المنطقية ، ولا للعدالة القانونية . وهاكم ما يقوله الرجل الحقوقي المعروف فارس الخوري في تفنيد الإعدام بدءاً من الوثائق المزعومة وانتهاء بما يستحق المتهم من خلال ثبوت التهمة السياسية عليه :

« **أولاً** : إنّ هذه الوثائق لا تحوي أسباباً لتبرير أحكام الإعدام . وإذا قوبلت مع نصوص قانون الجزاء لا نجد واحدة منها تصلح لأن تكون

مستنداً للحكم بالموت ، إذ أن الاتصال المزعوم بين واحد من الشهداء المرحوم شفيق بك المؤيد وبين سفير فرنسة أو قنصلها لم يثبت إلا بصورة مكاتيب صادرة عن السفير أو عن القنصل ، وليس هنالك وثيقة خطية من شفيق بك أو شهادة شخصية عليه تثبت اتصاله مع الأجانب بهذا الشكل ، زد على ذلك أن هذا المخابرة ، على فرض صحتها ، لم تقع في زمن الحرب مع فرنسة ، بل وقعت قبل سنة 1913 ، يوم كانت فرنسة صديقة للدولة العثمانية ،وليس فيها إغراء لدولة أجنبية على حرب الدولة وقتالها ليصح انطباقها على المادة 49 من قانون الجراء ،بل كلها عبارة عن طلب التوسط لدى السلطنة لإنالة العرب حقوقهم أو لإجراء الإصلاحات المقترحة في بلادهم ، وليس في قانون الجزاء نصّ يجيز حكم الإعدام على مثل هذه المخابرات ، وفوق ذلك فإن « هذه الوثيقة تناولت شفيق بك وحده ،وليس فيها دكر لغيره . . . »

ثانياً ـ بعد انتهاء حرب البلقان أصدرت الدولة العثمانية عفواً عاماً في سنة 1913 ، عن جميع الجرائم السياسية التي وقعت قبل تاريخ نشره ، من دون استثناء أو تحفظ ، وبحكم هذا العفو سقطت العقوبة عن جميع هذه الأفعال ، ومن جملتها مخابرة شفيق الآنفة الذكر ، وغيرها من الأمور المنسوبة للمؤتمر العربي الذي عقد في باريس سنة 1913 ،أو الجمعية الإصلاحية التي قامت في تلك السنة في بيروت أو المنتدى الأدبي الذي أسسه الشبان العرب في الآستانة أو سائر الجمعيات العربية التي دخلت مبادئها وأعمال أعضائها بهذه المحاكمة ،وإذا رجعنا إلى هذه الوثائق التي استند إليها جمال باشا في كتابه المذكرات لا نجد منها ما هو صادر بعد إعلان العفو العام المذكور ، بل جميعها واقعة قبله . ولما كانت المؤاخذة إنما تنحصر بالأفعال

الجرمية التي يرتكبها فاعلوها بعد تاريخ العفو فقط ، وكان لا يوجد بين هذه الجرائم الموهومة إلا ما تاريخه سابق للعفو ، فليس بأصول القضاء العادل ما يبرر الأخذ بهذه الوثائق (. . .) . اعترف جمال باشا في مذكراته بأن العفو المذكور قد شمل هذه الأفعال ، ولكنه زعم أنّ هؤلاء الأشخاص استمروا في ارتكاب جريمة الخيانة بعد إعلان هذا العفو ، مع أنّ الكتاب الأحمر ليس فيه شيء يثبت هذا الاستمرار ، وليس هنالك وثائق جديدة تؤيد سوى وشايات النمّامين . . . » .

ثالثاً : الصور الزنكوغرافية الملحقة بمذكراته والمنسوبة لبعض المتّهمين ليس فيها ما يوجب إدانتهم أصلاً . فضلاً عن سقوطها بالعفو العام الآنف الذكر ، وأما الوثائق الأخرى التي استند إليها ديوان الحرب في المحاكمة والحكم ، والمطبوعة في متن الكتاب فليس لها صور زنكوغرافية في الملحق ، وقد علمنا أن قسماً كبيراً منها مختلق ولو كان صحيحاً لصوّروه كما صوّروا غيره مع الوثائق الموجودة . وهذا الإبهام يفسح المجال رحباً للشك بصدق هذه الوثائق وصحة نسبتها إلى مصادرها ، بل ربما كان لها أصل حرفوه بالحذف منه ، والاقتصار على أخذ جمل بتراء تساعدهم على التمويه الذي أرادوه ، وهذا تصرّف ممنوع في أصول القضاء . . . » .

وهناك أمر مهم جداً هو أنّ قوانين الدولة العثمانية تنصّ على عدم تنفيذ أحكام الإعدام إلا بعد أن يصدقها السلطان ، وهذا ما لم يحصل إطلاقاً مدّعياً أنّ الأحوال لا تسمح بالتمهّل في إعدام المعتقلين ، « ولا ريب أن هذا التدليل مغالطة لا يقام بها وزن فالسرعة التي يدعي وجوبها لم يكن لها مبرر فقد كانت سورية ساكنة هادئة ليس فيها أقل أمارة للانفجار بل ربما

كان الحزم وحسن الإدارة يقضيان بتأجيل التنفيذ تطميناً للنفوس الجازعة » .

وأغرب الغرائب في تدجيل جمال باشا السفّاح ، ورفسه للحقيقة ، أنه استأنس بالمحدّث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني ليفتي له بقتل الزعماء العرب ، ويشكّ فارس الخوري أن تكون المحادثة بين السفاح والحسني على الشكل الموجود في المذكرات ، ويضيف « فربما يكون قد سأله : « ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فساداً ، ويلقون الفتنة بين المسلمين فيقتل بعضهم بعضاً ؟ » فقال له الشيخ : : « إنما جزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا ، وتقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » . فالفتوى على قدر النص » . والبيّن أن الباشا حوّر في السؤال ليكون له من الجواب الفتوى التي يريدها هو ، لا التي يتمخّض عنها السياق ! !

رابعاً : والملمح الرابع هو الغرور الذي ساهمت الظروف في خلقه داخل جمال باشا السفاح ، فراح يعتقد ـ كما اعتقد صنواه طلعت وأنور ـ ان ارتقاءه السريع إن هو إلّا تدبير إلهي خصّه به كي تظهر الخوارق على يديه ، فضرب عن الواقع ومعطياته صفحاً ، وانبرى يمجّد ذاته ، أو يطلب من يقوم بذلك عنه ، كما فعل لفيف النمّامين من حوله إذ صوّروا له أنه المنقذ الأكبر ، وكان من غروره أنه يستهين بسواه على نحو ما حصل له عندما سمع باندلاع الثورة العربية الكبرى ، فاعتقد أنها مؤامرة لن يلبث أن يقبرها في مهدها ، وشرع يعدّ القوى لمقاومتها دون الاهتمام بصداها في البلاد التي حكمها بالسيف والرصاص . وبلغ من أمر اعتداده بنفسه أنه تشبّه في غزوة

القناة بطارق بن زياد حينما أحرق المراكب وقال كلماته المشهورة : « البحر من ورائكم ، والعدو من أمامكم . . . » ، فنقلها جمال باشا إلى تربة أخرى ليست تربتها ، ولا ظرفها الحربي ، ولا التاريخي ، وقال لجنوده البؤساء : « أيها الجنود ، إن الصحارى القاحلة لتمتدّ من ورائكم ، والعدوّ الجبان يقف أمامكم ، ومصر الخصبة خلف هذا العدو ، وهي مشتاقة إلى الترحيب بكم ، فإن ترددتم فلن يكون نصيبكم إلا الموت . فإلى الأمام ، فإنّ الجنة أمامكم » . وما كانت غزوة القناة أساساً ، ولا ترك الآستانة من أجلها سوى إرضاء لغروره كيما يملأ مكان محمد علي باشا القائد الألباني المشهور الذي هو ، جمال باشا ، حفيد بطل من أحفاده ! !

* * *

طبعاً ليس ما قدمناه عن الملامح الداخلية لهذه الشخصية ، هو كل شيء فيها ، ولا شك في أنّ هناك صفات أخرى نعدها ثانوية ، أو تصبّ في مجرى الصفات ، التي ذكرناها كقوّة الذاكرة التي ترفد شيمة الغدر والانتقام ، وتوجب ألا يغيب عن باله حدث من الأحداث مهما كان ضئيل القيمة . ونتيجة قوة ذاكرته كان قادراً على أن يخلق من وشاية كاذبة قضية يحاسب عليها ضحيته ، وقد كاد فارس الخوري يكون تلك الضحية على أثر وشاية حذّره جمال باشا من عواقبها في الشتاء ، ولما التقاه ثانية بعد ستة أشهر ، قال له : حذرتك في الشتاء الماضي من سواد صحيفتك عندي ، ووضعه في سجن خان الباشا ونجا من الموت بمساعي المتنفذين والأصحاب .

- 3 -

زوايا الرؤية

تطامنت قلوب الناس لعودة الدستور ، وأملوا بتحسّن أحوالهم كما رأينا في الفقرة الأولى من هذه الدراسة ، ثمّ خابت آمالهم كلها لما كشّر الاتحاديون عن أنيابهم وشرعوا يفتكون بالعناصر التابعة للدولة العثمانية ، وخاصة بالشعبين الأرمني والعربي . ويحسن بنا ـ بعد التحدّث عما فعله جمال باشا السفاح بالعرب ـ أن نحاول معرفة رأي الأتراك أنفسهم بالاتحاديين عامة ، وبه خاصة ، بالإضافة إلى معرفة الزاوية التي ينظر إليه العرب والأرمن منها . ولكننا لا نملك بين أيدينا أقوالاً مباشرة ، ولا وثائق صريحة بخصوص ذلك ، مع أن مثل هذه الأقوال والوثائق وجد في حينه ، فضاع منه قسم ، وصار ما بقي قطعاً نادراً . فماذا ترانا فاعلين ؟

آ ـ رأي العـرب :

لو عدنا في تاريخ العلاقة بين العرب والترك إلى بدايات الاحتلال العثماني للبلدان العربية ، واستعرضنا الحال الاجتماعية والثقافية فيها حتى عهد الاتحاديين ، لوجدنا أنّ ما يسمّى بـ « الخلافة العثمانية » لم يكن سوى المظهر الخارجي الذي يخبىء تحته التنافر القومي بين العنصرين . ولسنا الآن في معرض التأريخ لنمو الشعور القومي التركي ، ومحاولة الساسة الأتراك أن يقضوا على معالم القومية العربية ، وتراثها الإنساني الحضاري . ولا حاجة بنا أيضاً إلى تقويم الفاتحين الأتراك لبلادنا بالاستناد إلى ما خلفوه من دمار ،

وفساد ، وقضاء على مدنية الأمم التي حكموها باسم « الذئب الأبيض » الذي سيتخذه الاتحاديون فيما بعد شعاراً لقوميتهم الطورانية . ففي مذكرات السفير الأمريكي مورغنتاو ، وفي كتاب « الثورة العربية » لأسعد داغر ، الشيء المفيد حول ذلك ، أما ما يهمّنا في هذه الفقرة ، فيقوم على فكرتين اساسيتين قد تلخصان لنا جوهر رأي العرب بجمال باشا السفاح ، وهاتان الفكرتان هما :

آ - إن معظم المتنوّرين والدارسين العرب لم يفصلوا بين شخصية جمال باشا السفّاح ، والتيار التريكي الذي كان الباشا واحداً من أبطاله ، وكانوا على اطلاع واسع بما نشرته جرائد الاتحاديين من تسفيه بالإسلام والعرب ، وبما نادى به بعض المجندين من خطبائهم ، ورجال الفكر عندهم ، لإذابة العرب في البوتقة التركية ، وكسر آخر حلم من أحلامهم القومية وهو اللغة العربية ، ولا سيما بعد المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس سنة 1913 . ففي الوقت الذي وعد الاتحاديون بإجراء الإصلاحات في المناطق العربية ، وبعد المظاهرة التي قام بها العرب في الأستانة من العام نفسه ، كانت جريدة « طنين » تصب حممها على كل ما يمت إلى الحضارة العربية الإسلامية بصلة . وكان عبيدالله الأفغاني المشهور بكره العرب والإسلام يجهر في خطبة ألقاها في جامع آيا صوفيا ، في شهر رمضان بقوله : « إن أوروبة ، وكلّ العالم المتمدّن يعرفون حكومة الترك المستقلة بأنها حكومة شعب شجاع غيور ، وأن خيل الجيش التركي التي نزلت في تقديسها آية (والعاديات ضبحاً) هي أعظم شرفاً واحتراماً بأضعاف مضاعفة ممن تقدّسونهم من أشراف الأمم الأخرى ورؤسائها » وهو يقصد الرسول الكريم والخلفاء الراشدين وآل البيت . وقد لهج في خطبة أخرى بالتوبيخ الصارخ للأتراك قائلاً : « ما هذا الجهل ، وما هذه الغفلة

التي استولت عليكم ؟ تعلقون أسماء خلفاء العرب على جدران جوامعكم ، ولا تذكرون بالاحترام اسماً من أسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الأحاديث النبوية الكثيرة » . ولم ينج من قدحه حتى الملائكة والأولياء والخضر عليه السلام : « إنكم تتركون تقديس سلطان قوي الشوكة كحضرة الفاتح صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم ، وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم كالخضر . . . » .

ودعا جلال نوري الحكومة الاتحادية إلى إجلاء العرب عن ديارهم ، وتحويلها إلى مستعمرات تركية ، واقترح القائمون على جريدة « اقدام » تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية . وكان المفكرون العرب ، والضباط ، ورجال الدين ينبرون للدفاع عن الإسلام والقومية العربية ، وذلك على صفحات جريدة « النهضة » في بغداد لصاحبها مزاحم الباجة جي ، وجريدة « المقتبس » في دمشق لمنير الريّس ومحمد كرد علي ، وجريدة « المؤيّد » للشيخ علي يوسف بالقاهرة ، وفي بيروت ارتفعت أصوات عبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني من خلال جريدة « المفيد » ، و « الاتحاد العثماني » للشيخ أحمد طبّارة . فماذا كان مصير هؤلاء العرب ؟

لقد انقلبت المواقف الاتحادية رأساً على عقب عشية وصول جمال باشا إلى سورية ، أي عشية وقوع الحرب العالمية الأولى ، وكان لهذا الانقلاب غرض ذرائعي يسوّغه لأنه يصب في مصلحة الأتراك ، وفي مصلحة الباشا الشخصية أيضاً . وهكذا ، وبين عشية وضحاها ، تحوّلت شتائم عبيدالله للمسلمين والعرب ، وهجوم يوسف اقتشورا ، وأحمد أنايف عليهم ، إلى تقريظ للعرب ، ولأمجادهم التاريخية نطق به سليمان نظيف الذي كان قبيل

دخول العالم في الحرب واحداً من الأدباء الذين يقدسون جنكيزخان ، فكتب في مجلة « الاجتهاد » التركية سنة 1913 :« إنّ جهاد عبد الرحمن الغافقي هو عندي اشرف وأثمن من المذبحة الملعونة التي قام بها هولاكو في بغداد (سنة 1258 م) .. إن مليكنا ليس هو جنكيزخان بل عمر الفاروق ، وإنّ أحط خليفة أموي هو خير من هولاكو وأجداده ؛ ذلك لأن العرب هم الذين أرشدونا إلى سواء السبيل ، وهم أساتذتنا المدّنون ، بل هم كل شيء بالنسبة لنا ، حتى إذا أعدنا للعرب ما أخذناه منهم فلا يبقى لدينا إلا جبّة ذات أكمام واسعة » . ولم يخرج جمال باشا عن دائرة هذا التحوّل الغريب ، فإذا به ـ غداة وصوله إلى دمشق ـ يلبس قفازاً حريرياً ، ويمدّ يده إلى العرب متحبباً إليهم ، ومبالغاً في المصانعة إلى حدّ أنه راح يثير فيهم ــ كما رأينا في خطبته الأولى ـ الحماس لقوميتهم ولعروبتهم . ثم التفت إلى من ردّوا على الطورانيين في جرائدهم ، فأغدق عليهم المال ، وساعدهم ، ولما وقف على رائحة الوطنية فيهم ، اقتصّ للأتراك منهم ، وخلع قفازه الحريري مسفراً عن عداء دامغ للعرب . وكان الوطنيون العرب يعرفون شيئاً عن مكره وخداعه ، ولكنهم آثروا الانضمام إليه اعتماداً على ما بقي عندهم من ذبالات الأمل في المصالحة بين العرب والاتحاديين ؛ لأنهم كانوا يتوجسون خيفة من المطامع الأوروبية في بلادهم ، مع أن الاتحاديين أنفسهم ، كما السلاطين العثمانيين من قبلهم ، هم الذين منحوا الأوروبيين امتيازات في سورية ولبنان ، كما منحوهم امتيازات في الآستانة أيضاً ، وكانت فرنسة ـ قبل الحرب ـ صديقة تركية المفضّلة ، وما فرّقهما إلا السعي الألماني لاستثارة المسلمين ضد المسيحيين الأوروبيين وفق ما ذكرنا .

وقصارى القول أنّ دوافع الثورة العربية على الأتراك لم تأت من محض

المصادفة ، بل تعود إلى ظروف تاريخية موضوعية لم يجهلها العرب ، كما أنهم لم يجهلوا نوايا الاتحاديين ، وجمال باشا ، وهذا ما دفعهم دفعاً قوياً للعمل على لمّ صفوفهم في داخل البلاد وفي خارجها ، حتى لو اقتضى الأمر أن يكون نشاطهمم سرياً كي لا ينكل بهم .

2 ـ والفكرة الثانية هي أن جانب اللين الذي أبداه جمال باشا عند وصوله إلى بلاد الشام ، وتكلّمه باسم الإسلام ، وضرورة التعاضد بين العرب والأتراك ، أغرى بعض الزعماء العرب ، فالتفوا من حوله لعلهم يجدون فيه عزاء عن تاريخ طويل حافل بالمظالم والفساد . وقد روّج هو نفسه لذلك ليكسب مكسبين : الظهور بمظهر الرجل الحسن النوايا ، وليمهّد لفكرة الاستقلال بسورية ومصر . ثم جاء الدارسون العرب وقوّموا سلوكه هذا ، وذهب حسن النية ببعضهم إلى الاعتقاد أن اللين والتساهل جزء من طبيعة الباشا ، وما كان ليتحوّل عن حسن معاملته ، لولا أنه وجد من الأسباب ما يدعوه إلى ذلك ، غير أنه أفرط في قساوته إلى حدّ عدم التفريق بين مذنب وبريء . يكتب الاستاذ جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » ما يأتي : « ولم يكن جمال باشا أحد أعضاء « تركية الفتاة » الذين يمثلون جمعية الاتحاد والترقي ويحملون طابعها . بل كان بطلاً معروفاً من أبطال الدعوة الإسلامية . فكان يخالف الداعين إلى الوحدة الطورانية ، ويجاهر ، عن إخلاص ، بإيمانه بمزايا القومية العثمانية المبنية على التضامن الإسلامي وبمستقبلها . . . » . ولا نعتقد أنّ في هذا الكلام شيئاً من الصحة إلا من حيث الاكتفاء بظاهر الأمور ، وعدم القياس التحليلي لما كان قبل أن يأتي جمال باشا إلى سورية ، ويعد أن حكمها أيضاً . ولا ندري على أية وثائق اعتمد الاستاذ انطونيوس ليعلن أن جمال باشا بطل من أبطال الدعوة

الإسلامية ! مع علمنا أن بطل هذه الدعوة هو السلطان عبد الحميد الثاني الذي استخدم مفهوم « الجامعة الإسلامية » أسلوباً لمحاربة القومية العربية التي بدأت تكوّناتها تبرز على الساحة في عهده . ثم كيف يمكن أن يخالف الداعين إلى الوحدة الطورانية وهو المكلف بتنفيذ « سياسة التتريك » في بلاد الشام ، تكليفاً رسمياً من الحكومة الاتحادية ، وهو القائل في خطبته الأولى في دمشق « إنّ غرض رجال « تركية الفتاة » هو إيقاظ الشعور الوطني في الأمة التركية ، وتدريب مواطنيها على العمل ، وتحريرهم من النير السّلافي ، وتقويتهم » . فالغرض واضح ، وهدفه معلوم ، وأشد ما دعا إليه الباشا في هذه الخطبة هو أن يحبّ الترك والعرب بعضهم بعضاً ، ولا نظن أنّ « القومية العثمانية » ، في حال إيمان جمال باشا بها ، موجودة أصلاً ، وقد أطلق عليها العرب آنذاك « الرابطة العثمانية » التي تنضوي تحتها عدّة قوميات هي التي ساهمت في تفجير السلطنة العثمانية غير العاملة على توحيد الصفوف ، وغير القادرة على توحيدها أصلاً .

ويضيف الاستاذ انطونيوس أنه كان لوصول جمال باشا إلى دمشق وقع حسن في النفوس « فقد جاء عاقداً العزم على كسب السكان العرب لموالاة تركية ومؤازرتها ، وعلى استمالة المسلمين إلى المشاركة الفعالة في الجهاد ، فأخذ يعمل على نزع المخاوف وبث الطمأنينة . وكان يريد أن يستخرج من الدعوة إلى الجهاد أقصى ما يستطيع من الفوائد ، ولذلك كان من الطبيعي أن يولي وجهه قبل مكة يطلب التأييد . وقد أرسل هو وأنور باشا رسائل إلى شريف مكة ، لا تزال موجودة ، تدل على مدى ما كانا عازمين عليه من الاحتيال والصبر في بذل الجهد لاكتساب تأييد الحسن » . . . . ثم جاءت مشكلة الوثائق التي عثر عليها الأتراك في قنصلية فرنسة ، فاتخذها ذريعة

وقتل من قتل .

وفي هذه الإضافة إدراك حقيقي لمرامي جمال باشا ، فذرائعيته واضحة ومنطقية ، إذ كيف يتسنى له إمالة العرب لمساعدة الدولة العثمانية بغير نزع المخاوف وبث الطمأنينة ، مع أنه ساهم في زيادة المخاوف ، وقتل الطمأنينة عندما راح يعامل الناس بغرور وصلف وبأوامر كانت تنتهي غالباً إما على أعواد المشانق ، أو أمام فوهات البنادق ، وأنصال السيوف . لا ريب إذاً أن جمال باشا لم يكن إلا عدوّاً للعرب ، وللإسلام أيضاً ، فما قام به يتناقض مع أبسط أخلاق المسلم في التسامح والعدل ، فكيف الحال إذا قسناه بأبطال الدعوة الإسلامية ؟ ! ولقد سكت على مطالب العرب في الاستقلال النسبي بحسب اللامركزية ؛ لأنه كان خائفاً من نتائج الحرب فيما لو انضم العرب إلى الحلفاء ، وعندما زال خوفه إثر انتصارات الألمان ، وتراجع الحلفاء بعد معارك الدردنيل ، واطمأن إلى نتيجة الحرب متوهّماً بأنّ النصر مضمون لدولته ولحلفائها ، حتى كشف عن يد الإجرام ، والقلب الطافح بالحقد ، فشنق رجالات العرب ، وساقهم إلى المنافي والسجون ، وأمات لبنان وسورية بمجاعة مدّبرة .

أو لم يفعل « أنور باشا » الشيء نفسه مع العرب ومع سواهم حيث قال بعد الانقلاب في إحدى خطبه : « اليوم تتقوّض دعائم الاستبداد ، فنحن أخوة ، وتحت هذا الجلد الأزرق يفتخر كل منا بأنه عثماني » ، ولم تمض اشهر على هذا الادّعاء حتى بدأ القادة الأتراك يعلّمون الجنود في الجيش العثماني أناشيد تمجّد أصل الأتراك ، وتحتقر العناصر الأخرى : « نحن ترك ، وأنت (ياآسية) أمانة بيد الترك فلا تخشي شرّاً لأننا نفديك

بأرواحنا ، انهض أيها التركي فقد نمت طويلاً ، وأسرع في الحال إلى إمداد بلاد أجدادك . . . » . وجاء في درس التربية العسكرية في المدرسة الحربية في الآستانة بعد الحرب بأيام قول الاستاذ التركي : « نحن أيها السادة أتراك ، وإني لأعجب من تسميتنا عثمانيين . فمن هو عثمان الذي ننتسب إليه ؟ إنه تركي جاء من آلتاي واجتاح هذه البلاد بجيشه التركي ، فانتسابنا إلى أصله أشرف من انتسابنا إليه » . فأين كلام « أنور باشا » من كلام الاستاذ التركي لصف الضباط في المدرسة الحربية ؟ !

إن القضاء على عبد الحميد الثاني نهاية لاستبداد فرد متسلط واحد ، ووصول الاتحاديين إلى الحكم تأسيس لعهد استبدادي لا يماثله في العنف والارهاب إلا النظام الصهيوني . وقد صدق الشاعر العربي المخلص لرأي العرب بجمال باشا ، وبجماعة الاتحاديين كلهم ، إذ قال :

« كان عبد الحميد بالأمسِ فرداً

فغدا اليوم ألفَ عبدِ الحميدِ »

وراح العرب يردّدون هذا البيت وراء شاعرهم ، وهم يحكمون على طغيان الاتحاديين ، واستبدادهم ، واحتقارهم للعرب .

2 ـ رأي الأرمن :

تجدر الإشارة إلى أن ما عاناه الأرمن من جور السلاطين في كفة ، وما عانوه من جور الاتحاديين سنة 1915 ، في كفة ثانية . وإذا كان السلطان الأحمر عبد الحميد الثاني قد أبادهم بعشرات الآلاف بدءاً من عام 1878 حتى عام 1908 ، فإن جماعة « الاتحاد والترقي » قد أخذت على عاتقها أن

تبيدهم عن بكرة أبيهم . فما علاقة جمال باشا السفاح بذلك ؟

كان يرى الأرمن في السلطان عبد الحميد الثاني عقبة كأداء في سبيل إجراء الاصلاحات في مناطقهم ، ولذلك عملوا ما بوسعهم للتخلّص منه ، وقد حاولوا اغتياله سنة 1905 ولم ينجحوا ، فعمدوا إلى استئناف المفاوضات مع الشبان الأتراك الأحرار على أساس خلع السلطان وإعلان الدستور . وقد تم ، بفعل ذلك ، انعقاد مؤتمر فيينا الذي حضره الأتراك والأرمن ، والكرد ، والأروام وبعض المكدونيين ، والعرب ، واليهود . وبعد أن قام الاتحاديون بخلع السلطان ، تفاءل الأرمن ، كما تفاءلت العناصر الأخرى ، وطالبوا بحقوقهم . فانقلب الاتحاديون عليهم ، وأدى الخصام بينهم إلى مذابح « أضنة » سنة 1909 ، وكان جمال باشا والياً عليها . وقد اتّبع الأسلوب نفسه الذي سيتبعه في بلاد الشام ، فتظاهر بتعاطفه مع الأرمن ، وهو يدبر لمجزرة تفتك بالآلاف منهم . ولا ينفصل ما قام به عما دبره « طلعت باشا » وزير الداخلية سنة 1915 ، عندما وضع خطة لإخلاء أرمينية من الأرمن بأية وسيلة كانت ، فإذا لم ينفع القتل ، فليكن النفي والتهجير أو التتريك الإجباري . ومن المعروف أنّ ضحايا مجازر الأرمن بلغت مليوناً ونصف المليون ، والعالم يتفرّج ، والدول الكبرى تماطل ، وتسوف التدخل كي تكسب من أراضي الدولة العثمانية القدر الأعظم .

وقد حاول جمال باشا بعد وصوله إلى سورية أن يتملص من مسؤولية تدبيره لمجازر الأرمن في أضنة ، وذلك باستمالة المهاجرين الذين بقوا على قيد الحياة منهم ، غير أنّ الشعب الأرمني لم ينس له فعلته ، وإن كان من

تحدّثوا عن المجازر منهم ، لم يعيّنوا الأسماء بقدر ما عيّنوا الظاهرة العنصرية الإجرامية الخطيرة . لذا نقرأ دائماً في الكتب الخاصة بمجازر الأرمن عبارة « الثالوث الاتحادي : أنور وطلعت وجمال » ، ففي هذه العبارة إدراك حقيقي للطبيعة التي جبل عليها الطورانيون ، وللقاعدة الأولى في سياستهم وهي القتل والإبادة . وبناء على ذلك قرّر « الاتحاد الثوري الأرمني » أن ينتقم من الثالوث الذي أوقع بعناصر الدولة العثمانية الويلات ، فقتل أنور ، وطلعت ، وجمال ، ورؤوس الاتحاديين الآخرين الذين تعاونوا معهم ، وكانوا أداة طيعة في أيديهم . وسنرجىء الحديث عن بعض مواقف جمال باشا من الأرمن إلى فقرة قادمة من هذا البحث .

3 ـ رأي الأتـراك :

سياسة الاستبداد والتتريك لا تعني أنّ « الشعب التركي » كان ناجياً من بعض مظاهر الاضطهاد ، أو موافقاً على نهج رجال السياسة في تركية . وإذا كان الأتراك قد استفادوا من الدولة العثمانية ، ومن الاتحاديين ، فقد دفعوا الثمن باهظاً أيضاً إذ صاروا لعبة بأيدي الدول القوية ، وانتهت بهم الحرب الأولى إلى فاجعة كبيرة كادت تذهب ببلادهم . وعلى كلّ حال ، ذهبوا ضحية الغطرسة والتضليل ، وإثارة الحقد ضد العناصر الأخرى . ونحن ، قطعاً ، لا نعدم الأصوات التركية المحتجة على هذه المظالم التي تحدثنا عنها ، لكن هذه الأصوات قمعت ، ولم يهيأ لها أن تسمع أمام موجة التزوير والدس التي أثارها الاتحاديون ، والسلاطين من قبلهم . على أن رأي الأتراك الأحرار لم يخص واحداً بعينه من جماعة الاتحاديين ، لا جمال باشا ، ولا طلعت ، ولا أنور ، بل تركّز في القضايا الأساسية كالتي أكدها الكاتب التركي المشهور علي كمال بك في مقالة له نشرتها جريدة « بيام » إذ

ألح على الحكومة في إرضاء العرب ، وإشراكهم في الحكم في قوله الذي نقتطف منه بعض المقاطع : « اشتهر العثمانيون بطيب سريرتهم اشتهار حكومتهم بسوء سيرتها . وما من أحد ينكر أن الحكومة العثمانية تقول ولا تفعل ، وتعد ولا تفي ، ولو نهجت في الماضي غير هذا النهج لأحسنت صنعاً ، وفتحت أبواب النجاح والارتقاء للأمة والبلاد » . « يعني الباب العالي اليوم بمسألتين تتوقف عليهما حياة الدولة ومستقبلها : المسألة الأرمنية ، والمسألة العربية » . « لقد أطرينا الدولة وقلنا فيها كل كلمة تسرّها يوم اتفاقها مع العرب ؛ لأنهم ركن الدولة المكين وسندها الأعظم (. . .) عرف أهل الغرب ما للعرب النجباء من المدنية الزاهرة والآداب الباهرة ، فاقتبسوا عنهم . وأما نحن فلم نفقه لذلك معنى ، فإذا اشترك العرب في الحكم فبشر الدولة بالفلاح والنجاح لأنهم يخدمونها جهد طاقتهم . . . » .

وانفرد من بين الاتحاديين أنفسهم الدكتور رضا توفيق يحتجّ على سياسة الاصلاح بالسيف ، وجعل المملكة ميداناً لسفك الدماء ، إذ قال لمحرّر جريدة « تقدّم سلانيك » سنة 1910 « أنا على اتفاق تام مع الجمعية على أنّ البلاد في حاجة إلى حكومة قوية ، ولكني أخالفها في استخدام القوة ، وإذا كان وجودي في المجلس قضى عليّ بأن أحمل على طلعت بك الممثّل الأكبر للجمعية في الوزارة ، وصديقي ورفيقي منذ الساعة الأولى في جمعية الاتحاد والترقّي ، فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ أن أفعل ما فعلت . ولو سكتّ كغيري لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي . إن الدستور لا يكون إلا كلمة لا معنى لها إذا لم تحترم الحرية السياسية ، والحقوق الأساسية ، وحرية القول والكتابة والخطابة ، وإذا لم تعامل العناصر كلها

معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور » .

إذا كان هناك من يستنكر سياسة الاتحاديين ، بما فيها سياسة جمال باشا . فهناك من الاتحاديين أنفسهم في الآستانة من تمنى على العرب أن يغتالوا جمال باشا ، ويخلصوهم من فجوره ، ويخلصوا بلادهم من أفعاله الإجرامية . يروي فارس الخوري الحادثة الآتية في أوراقه : « عندما رجعت إلى الآستانة في خريف 1917 ، واجتمعت بكثيرين من رجال الدولة ، وأساطين الاتحاديين سمعت منهم عبارات التأسّف على العرب لأنهم محرومون من فدائي حميّ الأنف ليغتال هذا الطاغية ، وهم لو فعلوا لما قوبل فعلهم بالاستنكار ، بل ربما كان مصرع السفاح وضع حدّاً لكل كريهة شنعاء في البلاد » .

ويرى بعض النزيهين الأتراك أن الاتحاديين الثلاثة سيجعلون الأجيال التركية القادمة تشعر بمنتهى العار ، لكثرة الحماقات التي قاموا بها في سياستهم ، ولفداحة الفظائع التي ارتكبوها بحق العرب والأرمن والأكراد وغيرهم .

- 4 -

المـواقـف والقـضـايا

ضمن إطار الموقف العام للاتحاديين ، يوجد شيء من التباين الجزئي بين مواقف الثالوث الاتحادي ، وهذا وارد إذا عرفنا أن كلاً من الباشوات الثلاثة كان يبحث عن مصلحته الخاصة مستخدماً سلطته لتحقيق ما يريد ،فما المانع في أن يعاكس نهج زميليه كي يصل إلى أهدافه ؟ ! وقد أدى الجري وراء المصالح الخاصة إلى تشبّث كلّ منهم بما يراه صحيحاً ، دون أن يترك منفذاً لأحد خصميه المفترضين ، على غرار الصدام الذي حصل بين جمال وأنور حول الموقف من دخول تركية في الحرب ، وتأييد أنور للأميرال سوشون في مهاجمة الأسطول الروسي في البحر الأسود ، إذ اعتقد جمال باشا ان أنور يتدخّل في شؤونه وهو وزير البحرية المسؤول عن مثل هذه القضية ولكي لا نشعّب الحديث كيفما اتفق سنحدّد بعض مواقف جمال باشا فيما يأتي :

آ ـ موقفه من الحرب :

أبدى جمال باشا بعض الشجاعة في الحرب البلقانية ، ثمّ جافته الانتصارات في الميدان العسكري ، لقلة خبرته أولاً ، ولعدم امتلاكه لعبقرية عسكرية مميزة ثانياً . لذلك رأى أن انتصار الدولة العثمانية على أعدائها ـ وكان ألدّهم العدوّ الروسي ـ لا يمكن أن يتحقق إلا بمساعدة قوّة خارجية ، وهذه القوة الخارجية تتمثّل في فرنسة غير أنّ فرنسة التي كانت

تعرف واقع الجيش العثماني الضعيف والمفكك اشترطت على جمال باشا إذا أراد كسب دعمها في الحرب ، أن تكون لها امتيازات خاصّة في سورية . ولما قامت الحرب ، كان رأي الصدر الأعظم أن تقف تركية محايدة ، وكان الحلفاء ـ كما يكتب ونستون تشرتشل ـ على استعداد عظيم لاكتسابها إلى جانبهم ومساعدتها فيما لو كانت تريد الحياد حقاً ، وكان بإمكانها أن تنال بفضل ذلك شروطاً كثيرة ، ولكن « حزب الاتحاد والترقّي » كان يريد الحرب حتى لو رضي الحلفاء بشروط تركية كلها . على أن وجهات النظر لم تكن متطابقة ، فأنور باشا شديد العصبية للمنقذين الألمان ، وجمال باشا فائق الثقة بالفرنسيين الذين رفضوا مساعدة بلاده ، وطلعت باشا يتصرّف بموجب مقتضى الحال ولكنه من رأي أنور . ووقع جمال باشا في مأزق ، فالانضمام إلى فرنسة في الحرب يعني الوقوف إلى جانب العدو الروسي اللدود ، وانكلترة التي تحتلّ مصر موطن آماله . والانضمام إلى ألمانية سيوقع الأتراك تحت سيطرة الضباط الألمان في الجيش ، وكان الباشا يعاني معاناة فظيعة من منافسة فولكنهاين كما رأينا .

وعلى الجملة فقد كان جمال باشا مع دخول تركية في الحرب ، لكن في الوقت المناسب ،وقد قال له رئيس أركان حربه علي فؤاد بك ،ينبغي أن تبقى الدولة العثمانية محايدة ، فأجابه : « وأنا على هذا الرأي ، ولا أرى أن نقذف بالمملكة إلى هذا البحر الذي ليس له قرار ، قبل أن تظهر لنا حقيقة الموقف . وسأبذل جهدي لتأجيل إعلان الحرب ، ولكن يتعينّ علي إذا رأيت روسية ـ عدوتنا اللدودة ـ على مقربة من الهلاك أن أكون صاحب الضربة الأخيرة » . إن في جوابه بعضاً من روح الاعتدال ، ولكنه من أنصار الحرب كي تختلط الأوراق بين المتحاربين ،على نحو ماتهيأ له ، وينفّذ

أغراضه بأعدائه الروس . فهل استقام له ذلك ؟

ب ـ موقفه من الأرمن :

مرّ معنا أن جمال باشا عامل العرب كما عامل طلعت باشا وأنور باشا الأرمن ، وهكذا تعاون الثلاثة على الفتك بخيرة أبناء هذين العنصرين وتشتيتهما ليخلو لهم الجو بعد الحرب . ورأينا أنهم نقلوا الأرمن إلى بلاد العرب ، والعرب إلى بلاد الأرمن ، وأن جمال باشا ارتكب الفظائع بحقّ أرمن أضنة عندما كان والياً عليها . ومع ذلك فقد أبان في مذكّراته عن مواقف أخرى تماماً لا يحسن بنا إغفالها إذا توخّينا الدقة ، والوصول إلى الأحكام الموضوعية . فماذا تقول المذكرات في القضية الأرمنية ، وما هو موقف الباشا من الأرمن عامة ، ومن المذابح التي ارتكبت بحقهم في أوج سيطرة حزبه « الاتحاد والترقي » على مقاليد الأمور في الامبراطورية العثمانية خاصة ؟

يكرس جمال باشا صفحات طويلة لتحديد موقفه من الأرمن ، تمتد من ص 425 إلى الصفحة 560 ، ويضمها الفصل التاسع . وما يلفت النظر في هذا الفصل أنّ الباشا يبوّبه تبوبياً شبه تاريخي ليأتي على المسألة من أساسها ، واضعاً الشعب الأرمني تحت عدسة تقويماته ، وتقويمات رفاقه في « تركية الفتاة » ، إذ يقول من السطر الأول : « نفضّل نحن رجال تركية الفتاة بلا جدال الأرمن وخصوصاً الثوّار منهم على اليونانيين والبلغاريين ؛ ذلك لأنهم أصفى خلقاً ، وأشدّ بأساً ، وأكثر صراحة من العنصرين الآخرين وهم فوق ذلك أوفياء في الصداقة والعداوة » . ويؤكّد من بعد أنّ الأتراك عاشوا مع الأرمن فترة طويلة من الأخوة وحسن المعاشرة ، حتى أنّ

الحكومة العثمانية أطلقت على الأرمن إسم « الأمة الصادقة » . ثم إنّ المروءة والصداقة التي أبدتها تركية حيال الأرمن كانت « السبب في اكتساب ثنائهم وعرفانهم للجميل . فكانت نتيجة ذلك كلّه أن الشعبين لبثا خمسة قرون دون أن يثور بينهما نزاع ما ، كما أنّ كل أرمني جعل اللغةالتركية لغته ، واتبع التقاليد والعادات القومية التركية » . فما الداعي إذا لنشوب الصراع وحدوث المجازر الأرمنية ؟

هنا تبرز المشكلة التي لا علاقة للأرض بها ، وهي مشكلة الجشع الروسي الناظر بعين الحسد إلى « المملكة العثمانية » ، إذ دأب الروس على تحريض الأرمن ضد الأتراك ، ومن ثم بدأت النزاعات تفعل فعلها في المناطق الأرمنية . وعلاوة على هذا الاتهام غير المستند إلى أيّ أساس تاريخي نرى أن هذا الفصل يبدأ بمقدمة تاريخية ، لكنها مليئة بالاستنتاجات المزاجية . وهكذا راح الاستياء من الأرمن يحل محل الشعور بالطمأنينة تجاههم لدى الحكومة العثمانية ، وهكذا أضاع منهم اللقب « الذي لقيهم به الأتراك وهو الأمة الصادقة » . وما إن يصل إلى مذابح السلطان عبد الحميد ضد الأرمن حتى يدلي برايه فيها قائلا : وقد استنكرت تلك الحوادث ، أيّما استنكار واعتبرتها تتضارب وما كنت أراه بخصوص الإدارة السياسية . ذلك لأني أستهجن فكرة استخدام الجماهير لقمع الحركات الثورية وتدبير المذابح . إذ مثل تلك الأعمال من شأنها أن تشوه سمعة الأمةالتي تلجأإليها، وتلطخ تاريخها « ويشترك في هذا الرأي جميع الوطنيين الذين يلقبون بثوار « تركية الفتاة » . ولا نرى أنّ في هذا الكلام تناقضاً إلا إذا قرأنا ما سيكتبه حول مجازر أضنة ناسياً الموقف الموحد لجماعة « تركية الفتاة » ، ومتكلماً فقط عن نفسه . وقد ألقى بالتبعة على متصرّف جبل بركات « آصف بك » الذي

« كان شديد الخوف رعديداً ، حتى إنه ليفزع من ظلّه . على أنّ الباشا لا يغفل فكرة أن الأرمن - كغيرهم من عناصر الامبراطورية العثمانية - جموحين في فهم الحرية التي أتاحها الدستور ، فهو يقول : « فإن الأهالي الملكيين في كل أرجاء المملكة بعد إعلان الدستور من العناد والتمرّد بحيث صار من المتعذر على كل إنسان عظيماً كان أو حقيراً حتى الحاكم نفسه أن يكبحوا جماحهم » . إذا كان ينبغي أن تقصّ جوانح من يفهم الدستور في ضوء « الحرية » والمطالبة بالإصلاح والمساواة . ويبني على هذا الزعم اتهاماً آخر لـ « المونسنيورموشيغ » ناعتاً إياه بالمجرم الحقيقي الذي حرّض الأرمن على الأتراك ، ويشاركه في ذلك الحاكم « آصف بك » أما هو ، جمال باشا ، فقد عمل ما بوسعه لإيقاف المجازر ، وإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي . والغريب أنه في تفنيده للأسباب التي أدت إلى المجازر لا يتخلّى لحظة واحدة عن الاستنتاجات غير النزيهة ، فهو يؤكد مثلاً أنه لا يد له في مجازر أضنة ، ثم يعود فيقول : « وقد قتل في تلك المذبحة 17000 أرمني و 1850 (*) تركي . وأنّ هذه الأرقام لتدلّ على أن الأرمن لو كانت لهم الأغلبية لانعكست الآية ، ولفاضت أرواح الأتراك على شفار سيوف الأرمن وتساوى الفريقان في ارتكاب الفظائع » . مما لا يدع شكاً في تعصّبه لقوميته وإيجاد المسوغات الافتراضية ، أو المختلفة ليجعلهم أبرياء ، متناسياً الطابع السياسي المحسوب لهذه المجازر التي وقعت تحت أعين الاتحاديين ، ونفذتها أيدي رجالهم .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، وأصدر الاتحاديون أوامرهم لإبادة

---

* العدد الحقيقي للقتلى في مجازر أضنة 30,000 من الأرمن وعشرات من الأتراك .

الأرمن بالتقتيل والتهجير ، رأى جمال باشا ، الذي كان حينئذٍ في سورية ، المجال فسيحاً ليعلن موقفه أولاً ، وتملّصه من هذا الإجراءات غير الصحيحة ثانياً ، فهو يقول : « ولما وصلت إلى السلطات المدنية - بعد نفي أرمن الأناضول - الأوامر بنفي جميع الأرمن من أضنة وحلب ، عارضت فيها معارضة شديدة ، ولم أكتف بذلك ، بل كتبت تقريراً مفصّلاً عن هذه المسألة ، وبعثت به إلى الآستانة ، وقد ذكرت فيه أنني لا أرى ضرورة ما لذلك العمل الذي لا بد أنه يؤثر تأثيراً سيئاً في المركز ليقرر فيما يشبه الاعتذار إلى الأرمن من أن شأنهم ليس من صلاحيته ، وأنه عمل ما بوسعه لمساعدتهم أثناء وصولهم إلى سورية : « ولكنّي وقد أمرت بألاّ أتعرّض لما لا يعنيني ، أو أدخل في شؤون السلطات المدنية بل أمدها بالمساعدة فقط ، هل كنت أستطيع أن أحول دون تنفيذ هذه الأوامر أو أن أعطلها ؟ ولما كنت موقناً بأن نفي جميع مهجّري الأرمن إلى العراق سيذيقهم من الكروب ألواناً ، رأيت أن أحول كثيراً منهم إلى ولايتي بيروت وحلب فنجحت بعض الاحتجاجات التي أرسلتها إلى الآستانة في الحصول على الأذن بما طلبت ، وبهذه الوسيلة استطعت أن أبقي في هاتين الولايتين زهاء (150) ألف مهاجر » . ثم ينبري ليعدّد الخدمات التي أسداها للأرمن بدافع من إنسانيته : « وسيعلم الجمهور متى اطلع على سجلات الجيش الشيء الكثير عن أعمالي ، وكيف كانت كلها قائمة على الاعتبارات الإنسانية . . . » وأقسم أنني لأمقت التحدث عن نفسي ، وأكره الأطناب في المساعدة التي قدمتها إلى أولئك الأيامى واليتامى . فإني أعدّ ذلك تمدّحاً بالمناقب وتباهياً بالمزايا الأدبية لتلك الأعمال التي لم يدفعني إلى القيام بها إلا باعث الإنسانية المحضة » . فأين الموقف الجماعي لجماعة « الاتحاد والترقي » ، وأين رفضهم لمجازر 1894 التي ارتكبها السلطان عبد الحميد الثاني ؟ ثم أين هذا

التسويغ المصطنع من قوله بعد صفحة واحدة ،وهو يبغي تبرئة زملائه أو بالأحرى زميليه أنور وطلعت : « وأني أعتقد اعتقاداً جازماً أن الأرمن كانوا قد دبروا ثورة من شأنها تعريض مؤخرة جيشنا في القوقاز لأشدّ الأخطار لو وقعت ، بل ربما أدّت في ظروف خاصة إلى إبادته على بكرة أبيه . فبناء على ذلك آثر زملائي نقل الشعب الأرمني بأسره إلى جهة أخرى بحيث يؤمن شرّه على أن يعرضوا المملكة العثمانية للمحن والخطوب الفوادح . . . » .
إذاً هو مع نفي الشعب الأرمني ،لكنه ليس مسؤولاً عنه ، وفي الوقت ذاته يتوهّم أن مخطط النفي والإبادة سيندثر إذا أبدل كلمة « نفي » بكلمة « نقل » . وإذا كان قد ادعى أنه صديق الأرمن ، وأنه ساعدهم قدر استطاعته ،فلماذا يتشفّى منهم بلهجة الاستفهام المستنكر عندما يقول : « فلنفرض جدلاً أن الحكومة العثمانية نفت مليوناً ونصف مليون من الأرمن من ولايات الأناضول الشرقية ، وأن زهاء (000 600) منهم قد مات أو قتل في الطريق ، أو سقط ضحية الجوع والتعب ،فهل يدري أحد كم قتل من الأكراد والأتراك في ولايات طرابيزون وأرضروم ووان بتليس بصورة تقشعّر منها الأبدان بأيدي الأرمن عندما زحف الجيش الروسي على تلك الولايات ؟ » وكأنه يريد أن يفضي إلى نتيجة واحدة لا يستطيع إخفاءها ، وهي أن الأرمن مذنبون ويجب أن يعاقبوا . على أنه لم يسأل نفسه عن الداعي الذي سيدفع الأرمن لقتل الأكراد أو الأتراك ، إذا لم يكن هؤلاء قد فعلوا شيئاً ضدّهم . اللهم إلا إذا سمّي الدفاع عن النفس قتلاً وجريمة .

فإذا بان التناقض في مذكرات جمال باشا ، فأية خدمات قدمها للأرمن هي تلك التي ستدفع بطريرك الأرمن (زافين أفندي) إلى زيارته في الأستانة ، عندما كان فيها سنة 1915 ،ليسلمه مذكرة شكر من البطريركية

باسم الأمة الأرمنية بأسرها؟ وكيف لنا أن نصدّق، أمام هذه التناقضات، ما يروى عن أن خلوصي بك، صديق د. الشهبندر، احتجّ إلى طلعت باشا على تصرّفات جمال باشا، فقد أمر بإعدام بكباشي شركسي اسمه «أحمد بك» «بحجة أنه عذب المهاجرين الأرمن وآذاهم». وقال إن إطلاق يده على هذا المنوال يقتل ويشنق من دون استئذان معناه انتهاك حرمة القوانين؟

وأخيراً يسند إلى البطريرك زافين أنه شاهد على صداقته للأرمن، وحبه لهم، «وأن زافين أفندي، بطريرك الأرمن ليعلم أكثر من أي شخص آخر مقدار ما أكنّه في صدري من شعور الصداقة حيال الأرمن». غير أن الصفحة السابقة لهذه الكلمات تدل دلالة قاطعة على أن جمال باشا ليس مع تحقيق أية أمنية من أمنيات الأمة الأرمنية، وما على الأرمن - كي يعيشوا بسلام - إلا أن ينسوا الماضي، ويكفوا عن التفكير بتاريخهم، وحدود مناطقهم، فهذا ليس إلا ضرباً من المستحيل على حدّ قوله: «وفوق كل شيء إني أنصح للأرمن الأتراك إذا أرادوا العيش في سلام وهناء، وعلى الأخص لمصلحة الأتراك، أن يعدلوا نهائياً عن تلك الأماني المستحيلة التي طالما عللوا بها نفوسهم وهي أن تصبح ولايات أرضروم وبتليس ووان وديار بكر ومعمورة العزيز يوماً ما جزءاً من أرمينية».

وفي النهاية نقول: ما ورد في مذكرات جمال باشا المكتوبة بعد خمس سنوات على الأقل من المجازر الأرمنية لسنة 1915، لا يبعث على التصديق إطلاقاً، لأنّ فيها من التزوير، والالتفاف على الحقائق، والتزود، والافتراء على التاريخ والناس، ما هو كفيل بإلغاء

مصداقيتها .وبجعلنانحكم أنها لم تكتب إلا لتكون دليل براءة لم يفكّر بها الباشا إلا بعد أن لوّث يديه الأثمتين بفيض من دماء الأبرياء من عرب وأرمن على السواء .

ج - موقفه من العرب :

لما كان الفعل يترجم الموقف ويعبر عنه ،فإن في الأفعال التي قام بها جمال باشا السفاح تنفيذاً لأهداف برنامج « الاتحاد والترقي » الذي تتلخص نقاطه« بميل زعماء تركية إلى التخلص من الحركة العربية والقضاء عليها وهي في المهد ، وكانوا يعتقدون أن فرصة الحرب من الفرص السانحة التي لا يجود الزمان بمثلها » ولذلك لم يحجم جمال باشا عن إعدام الوطنيين ، و « بما أدركه الترك من نصر في الدردنيل على الحلفاء في تلك الأيام ، فقد والى الحلفاء الهجوم وكانوا يعتقدون أنه لا بدّ لأساطيلهم من اقتحام حصونه ،ودكّها ، ثم مجيئهم بعد ذلك بالجيوش وانهزامها ، مما شجّعَ الترك وقوّى عزائمهم ، وجعلهم يعتقدون بأن الفوز سيكون في جانبهم ، وأنه يجب التخلص من أذكياء العرب ليعيشوا مرتاحين زمن السلم » ، ويضيف الأستاذ أمين سعيد أن اطّلاع بعض النابهين العرب على خطة جمال باشا في تحريض الأرمن على الدولة العثمانية ،وتوسيطهم لدى الحلفاء ، دفعه ليغتنم الفرصة فيقضي على الأحرار من أبناء البلاد ، ويؤيد استنتاجه ما صرح به عبد الكريم خليل ساعة الإعدام وهو قوله : « إني أعرف لماذا يقتلني جمال باشا » .

وثمة موقف آخر ينبغي أن نعرّج عليه لما له من الأهمية لأنه يخص أعقد قضايا العرب وأهمها ، وهي قضية فلسطين ، وأطماع اليهود فيها منذ

مطلع القرن التاسع عشر ، فالسلطان عبد الحميد اتّهم الاتحاديين بأنهم خلعوه عن عرش السلطنة لأنه لم يقبل يمنح اليهود امتيازات في الأرض المقدسة ،ولم يجز لهم الهجرة الدائمة ،مع أن الوثائق التاريخية تقول بوجود إحدى وعشرين مستوطنة يهودية في فلسطين بناها اليهود في فترة حكم هذا السلطان .

ونفى الاتحاديون من جانبهم أن تكون لهم علاقة بمطامع اليهود ،وبتشجيعهم على نيل شيء منها ، والحقيقة غير ذلك أيضاً ، فبين الطورانية والصهيونية أواصر قوية ، والصهاينة هم الذي كانوا وراء إيجاد الفكرة الطورانية والترويج لها ،ويكفي أن نشير إلى أن جاويد بك وزير المالية التركي هو يهودي الأصل ، وقدّم لليهود خدمات جليلة بحكم سطوته في الآستانة . لكن ما هو موقف جمال باشا ؟ !

لقد اعتمد جمال باشا في حكمه لسورية على التجسس اعتماداً كبيراً ،وهو مؤسّس أول مجموعة استخبارات فيها ،وبحسب ما نشرت المجلة الأسبوعية : « المجموعة التاريخية المصوّرة » مقالاً بعنوان : « جمال باشا والاتفاق مع الصهيونيين على الوطن القومي » ، ظهرت يهودية حسناء اسمها « سارا » كانت تتجسس على الأتراك لصالح الحلفاء ، وكانت تنتمي إلى شبكة في فلسطين تخدم الحلفاء مقابل أن يطلقوا يد اليهود في بناء مستعمراتهم ،وشراء الأراضي . وصادف أن سمع جمال باشا بهذه الحسناء ، وحصل على الوثائق التي تدل على اتصالها بالأسطول الفرنسي ،ولما رأت هذه الوثائق عند لقائها بالباشا « كادت تصعق في مكانها ، وأجهشت بالبكاء لما أيقنت بافتضاح أمرها . ولكن الباشا أسكتها

بغضب ، وأمرها أن تعلمه بالحقيقة كلها . فجثت على قدميه ، والتمست عفوه وقالت : انها تركية الأصل سافرت قبيل الحرب العظمى إلى مصر لتقوم بالتجسّس (في مصر) لحساب تركية ، ولكنها وقعت في حبائل الجواسيس الانكليز ، واضطرت أن تعد رجال الاستخبارت البريطانية بالاشتغال لحسابهم ،لقاء عفوهم عن حياتها (. . .) واجتمعت في بورسعيد بالضابط « شوفيل » فأخبرها أنه عالم باشتغالها لحساب الانكليز ، وأنه لا يريد أن يتعرّض لها في شيء ، وإنما يطلب منها أمراً واحداً وهو أن تستميل إليها جمال باشا لا لخداعه واستلال أسرار الجيش من صدره ، بل لتكون وسيطة بينه وبين فرنسة ، لتعرف نياته تجاه فرنسة ،وعرفتها وأخبرت بها المسيو تافيل . فسألها الباشا : « وماذا عرفت عني ؟ » فقالت : عرفت أنك تكره الألمان وتحبّ فرنسة « فأمرها جمال باشا بأن تقابل المسيو تافيل وتقول له : إنها نجحت في مسعاها . وفي اليوم التالي أصدر جمال باشا أمراً بإبعاد المسيو تافيل ، واعتقال أبراهام ليفي ، والنوتي محمد سعيد ، وأبقى اليهودية الحسناء طليقة لأنه وقع في هواها من جهة ، « ولأنها من الجهة الأخرى ستلعب دوراً جديداً في وساطتها بين جمال وأقطاب الصهيونيين في فلسطين ، وهذا ما كتمه الباشا عن مدير الأمن لأنه كان يطمح إلى المناداة بنفسه ملكاً مطلقاً على سورية ولبنان كالخديو في مصر ، إذا نجحت مفاوضته مع الفرنسيين . ولكنه أوقف هذه المفاوضات ، ليفتح باباً آخر بعد أن أفضت الحسناء إليه بأن هناك فئة من كبار الماليين اليهود يسعون لدى الحلفاء ، للوصول إلى غايتهم من إقرار الوطن القومي في فلسطين ، وأنهم في الوقت نفسه يريدون مفاوضة الحكومة العثمانية بهذا الخصوص . فبعث جمال باشا فؤاد بك سليم رئيس قلم الشؤون المصرية إلى القدس برفقة ناتاليا « وهو الاسم الحقيقي لسارا » لمخابرة الوفد الصهيوني ،ومعرفة

شروطه ،وكان أهم تلك الشروط الاعتراف بتأسيس الوطن القومي اليهودي وإباحة الهجرة الصهيونية إلى فلسطين كي يقيموا فيها مستعمراتهم على أن تكون مستقلة ببلدياتها من حيث إنفاق الأموال على تحسين المستعمرات ،ويتعهد الصهيونيون لقاء ذلك بتأمين شيئين :

- مساعدة تركية في مسألة الديون العمومية وإقراضها الأموال اللازمة لها :

- إمداد جمال باشا بالمال والرجال لتحقيق مطامحه في اكتساح مصر واعتلاء عرشها على أن يشمل اليهود بحمايته ،ويلغي القرارات القاضية بمنع اليهود من التملك في فلسطين ، وعلى أن يسعى لدى الحكومة المركزية للاعتراف رسمياً بالصهيونية ، والوطن القومي اليهودي .

وعندما رفضت الحكومة المركزية في الآستانة نصيحة جمال باشا بالقبول بالشرط الأول لأنه يؤمن المال اللازم للحرب ، تفرّغ الباشا للمفاوضة على الشرط الثاني كي يصل إلى حلمه الذهبي . وعلى الرغم من أن جمال باشا زار القدس ،وقابل الوفد الصهيوني ، فلم تسفر المفاوضات عن نتيجة حاسمة ، لأن الحرب لم تكن لصالح الأتراك . غير أن الباشا صار صديقاً حميماً لليهود .

- 5 -

الحاكم بأمره

نستنتج مما سبق أن جمال باشا السفاح واحد من أكثر الحكام تسلطاً وقسوة ، فقد كان يقول إذا اعترض على أحكامه أحد : « هذه مشيئتي » ، ويمضي كما فعل عندما أخفى عن مدير الأمن أمر الحسناء اليهودية سارا ،وعندما كان ينفّذ أحكام الإعدام بالوطنيين العرب ، إذ كان يكفي أن يغضب من ذكر اسم من الاسماء ، ليعرف صاحب هذا الاسم أنه قطع نصف الطريق إلى الموت المؤكد . وقد كان يحدّد لأعضاء ديوان الحرب قبل الاتهام والمحاكمة عدد الذين يرغب في إعدامهم ،وعندما يستلم القوائم الإسمية ليوقع عليها ، ينتقي من الأسماء ما يروق له ، ويحذف ما يراه ، دون أن يعترض على أحكامه أحد . ولعلّ أفصح القصص التي تحكي عن سلطة هذا السفاح المطلقة هي محاولته تبرئة نفسه بالإكراه والعنف إذ نقرأ في كتاب « نبذة من وقائع الحرب الكونية » ، ما حدث فيها ، وهذا نصّها : « أكرهت المقامات الدينية على إعطاء الشهادة باستقامة جمال باشا واستصواب أعماله ومآتيه . إن جمال العاتي عرف أن أوروبة أطلقت عليه الألسن بالطعن مقبّحة عمله ، وأنّ الجميع يلقون تبعة المجاعة في سورية ولبنان عليه ، وأنها حصلت انتقاماً من شعب ضعيف آمن ، فكأنه أدرك أن الأمم ستحاكمه على مظالمه ، فعمد إلى تبرئة نفسه . وقف يوماً على جريدة فرنساوية ، وبها خطاب الكونت سليم قريصاتي ينتقد سياسة جمال باشا مبيناً مظالمه ،وتسبيبه المجاعات ،وكل ما أتى به ، فاغتاظ جمال باشا من هذا

المقال ، واستدعى سيادة المطران ديمتريوس قاضي قائمقام بطريركية الروم الكاثوليك (. . .) وقال له : لقد استدعيتك لأبيّن لك أنّ انتقامي من طائفتك لم يكمل بعد . قلت لك مراراً إنكم تحبّون فرنسة ، وإنكم أعداء لتركية ، وأنت تنكر (. . .) إقرأ هذه الجريدة فترى ما كتبه سليم قريصاتي (. . .) ثم سأله جمال : قل يا صاحب السيادة هل أنا ظالم ، هل أنا مفقر العباد ، وقاتل البلاد ، أجابه المطران : إنك تفعل ما يوحيه إليك ضميرك . ثم سأله جمال : هل تشتكي مني لشيء ؟ أجاب المطران : لي ملحوظات وهي أنّي أنتقد على دوائر العدلية انحيازها عن جادة الحق ، وأعلم أن دائرتي الشرطة والدرك تأتيان بقبيح الأعمال (. . .) وطلب ممهلاً أن يكتب له المطران تقريراً ، فكتبه ليوضح فيه مساوىء الدوائر الآنفة الذكر ، فلما اطلع عليه الباشا ، ضربه بعرض الحائط ، وأرسل إلى الأسقف أحد وجهاء النصارى يفهمه أنه يريد تقريظاً لأعماله ، وثناء على مجاملته للشعب السوري وخصوصاً النصارى ، فرفض سيادته الطلب ، وقال : ما تعودت التزوير ، فلست أريد أن يسميني التاريخ مزوّراً « إني نظرت المظالم لم تتمثل أمامي في كل البلاد ، أفأصفه بالعادل ، شاهدت الفواجع والخطوب تسحق الإنسانية ، أأقوم مرنّماً له نشيد الإنشاد . الابن يلعن أمه لجناية ارتكبتها بولادته ، والأطفال والمساكين يزاحمون الكلاب على التقاط فضلات الطعام والعظام المرمية في الشوارع ، فكيف يريد أن أثني عليه . دعني أيها الحبيب أَبْكِ من مصائر الدهر . وأضاف الأسقف : « إن فؤادي يتفطّر عندما أشاهد جمال باشا في داره بين الأنوار والجواري وأبناء هذه البلاد يتسكعون في دياجير الفقر ، ويعلّقون بالمشانق » . فما كان من جمال باشا ، إزاء هذا الرفض ، إلا أن يكتب عن نفسه ثناء ، ويرسله إلى الأسقف كي يوقع عليه ، وأفهمه أنّ الرفض يجلب عليه وعلى الطائفة

الشدائد والوبال . فدمعت عيناه دمعة المظلوم المكره ، وأمضى الكتابة قائلاً : لولا أنّ امتناعي يجر الوبال على طائفتي لما فعلت ولو آل الأمر إلى فقد حياتي . وكان جمال باشا قد فعل من رؤساء الطوائف المسيحية الأخرى ، ما فعله مع الأسقف . فهل صار بريئاً . . .

- 6 -

نهاية قاتل

أعلن جمال باشا السفاح في آخر صفحة من مذكّراته أنه على استعداد للحوار مع من يقترح على الأرمن حلاً أفضل من اقتراحه عليهم بأن يدفنوا الماضي الملوث بالدماء ، وإعلان ولائهم ، باعتبارهم أقلية ، للعثمانية التي انضوى أجدادهم تحت لوائها . لكن هل بإمكان شعب أبيد منه مليون ونصف الملايين أن ينسى من أباده ، وشرّده وأنكر عليه حق الحياة ؟

الجواب « لا » ، ففي المؤتمر العام لحزب « الاتحاد الثوري الأرمني » المنعقد عام 1919 تقرّر قتل جميع الاتحاديين المسؤولين عن المذابح الأرمنية . وشرع الفدائيون الأرمن ، على أثر ذلك ، بتنفيذ هذا القرار حيث تمّ اغتيال « طلعت باشا » في مدينة برلين في 16 آذار عام 1921 ، واغتاله الفدائي الأرمني « صوغومون تهلريان » . وفي 19 تموز من العام نفسه وفي مدنية اسطمبول قام الفدائي « ميساك تورلاكيان » بإعدام حاكم مدينة باكو في أذربيجان « جيفانشير » .

وفي السادس من كانون الأول عام 1921 أيضاً قام الفدائي الأرمني « أرشاوير شيراكيان » بإعدام الصدر الأعظم سعيد حليم باشا في مدينة روما بايطالية . كما تمّ اغتيال كلّ من بهاء الدين شاكر ، وجمال عزمي على يدي الفدائيين الأرمنيين« أرشاويرشيراكيان ، وآرام ييركانيان » . فكيف تم قتل السفاح جمال باشا إذاً ؟

عندما وضعت الحرب الأولى أوزارها ، وكاد الحلفاء يحتلون تركية بأكملها ، وبعد دخولهم بلاد الشام مع الجيوش العربية ، فرّ جمال باشا مغادراً يحمل منها ملايين الليرات الذهبية ، ولم يكن يعرف إلى أية وجهة سيتوجّه ، فلجأ أولاً إلى برلين ، ثم غادرها إلى سويسرا ، وبعدها عاد إلى أفغانستان ليكون مفتشاً عسكرياً عاماً ، وليقوم أيضاً بتدريب الجيش الأفغاني على أساليب الحرب الحديثة . وفي تلك الأثناء أجرى اتصالات مع البلشفيين في موسكو ، وطشقند سنة 1920 ، وكان جمال باشا يمر بتفليس عندما يأتي من كابول وهو في طريقه إلى اسطمبول . فما كان من الأرمن الموجودين في تفليس إلا الاستعلام عن مواعيد وصوله ، وهكذا علم أحد الفرّانين واسمه « بوغوص بوغوصيان » من نور الدين بك الملحق العسكري التركي في تفليس أن الباشا قد وصل تفليس ، فاجتمع ثلاثة عشر شاباً ، ليقرروا القضاء على عدوهم ، وعدوّ أصدقائهم العرب جمال باشا السفّاح . وقد تطوع اثنان من هؤلاء الشبان وهما : أرداشيس كيفوركيان ، وبيدروس ديربوغوصيان بمهمة قتل ذلك الطاغية . وفي شارع كانوفسكايا رقم 24 كانت تقوم السفارة التركية في تفليس . وقد وضعت السفارة تحت مراقبة أولئك الشبان . وبذلك صارت تحركات الباشا تحت أنظارهم ، وبينما كان في مطعم النادي الواقع في شارع دوفوتيوفانا عرف الشابان المتطوعان لقتله ، بأمر وجوده ، فأتيا على الفور ومعهما صورة شخصيَة له مأخوذة من مجلة روسية صادرة عام 1915 . وتأكّدا من التطابق بين وجهه والصورة ، وراحا يكملان عملية مراقبته . وكان يمكن أن يقتلاه في مطعم على قمة برج يطل على المدينة ، لكنهما فضّلا قتله في أحد الشوارع الجانبية كي يتسنى لهما الفرار والتواري عن أعين المراقبين . « واتفقا أخيراً على أن يقتلاه أمام مركز شرطة مدينة تفليس في شارع « صولولاك » ، كأنهما يريدان التحدّي » ، فشارع

بطرس الكبير يقع بالقرب منه ، وساحة بريفان يمكن الوصول إليها خلال دقائق ، كما يمكن الاختلاط بالمارة الكثيرين . ومن هناك يسرعان إلى فرن بالجيان حيث كان مقرراً أن يلجأا إليه ، ويختبئا فيه » .

وبعد طول انتظار خرج الباشا من البرج ، وهو يمشي مع أحد مرافقيه غارقين في حديث حميم ، والمرافق الثاني يسبقهما ببضع خطوات ، وخلفهم أحد المخبرين الأرمن واسمه « سيروب نورلاريان » ، الذي أشار إلى ارداشيس وبيدروس محدداً جمال باشا . وكانت الساعة حينئذ العاشرة ليلاً ، حيث قلّت الحركة في شارع بطرس الكبير . فما تأخّر الشابّان الأرمنيان عن الاقتراب من الباشا ومرافقيه التركيين ، تدفعهما الثقة بالنفس ، والغضب الساطع ، وصرخ أرداشيس في وجه جمال باشا السفّاح : بحقد وغضب وقوّة : ياباشا . . . ياباشا ، تذكّر أورفة ، واستغاثة نساء الأرمن ، . . . تذكّر دير الزور . . . » « وحاول أحد المرافقين أن يمدّ يده إلى جيبه ليخرج مسدّسه ، ولكنّ الشابّين أسرعا بإطلاق النار ، فتركا الثلاثة يتخبطون بدمائهم تحت أقدام الأرمنيين المنتقمين . . . » .

خـاتمـة

لقد بلغ الغي ، والغطرسة بجمال باشا السفاح حدّاً جعله يدير ظهره لقيم الأمم ، والإنسانية كلها ، ويتنكّر لأبسط المبادىء الديمقراطية التي طالب بها الأرمن والعرب عشية إعلان الدستور الذي تم بموجبه خلع السلطان عبد الحميد الثاني . وفعل ما فعله باسم دوافع لا تمت إلى الوطنية بشيء ، فقدر المطامع الشخصية ، كما بيّنا ، يربو على مشاعر البناء والمساواة بين عناصر الدولة العثمانية . ولم يدّخر في سبيل إشباع رغباته أية وسيلة مهما كان مستواها وضيعاً ، وهل هناك أكثر وضاعة من القتل ، والتجويع ، والتشريد ، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار تلك الجملة الصماء الدّالة على فحشه ووحشيته ، التي جهر بها قائلاً : « إذا كنت قد أفنيت الأرمن بالحديد والنار ، فسأفني العرب بالتجويع » . ؟ !

وبعد ألا يمكن القول ، بالاستناد إلى هذه الدراسة بنقاطها كافة ، ان أحمد باشا السفّاح ، بطموحاته ، ومنصبه العسكري والسياسي ، وأسلوبه القمعي الخارج على القواعد الإنسانية والأعراف الدولية كلها ، هو الإفصاح البيّن عن حال الدولة العثمانية التي كانت عرضة لأطماع الدول العظمى . ومهما قيل في الظروف التي أحاطت بنشأته وباستلامه لمقاليد الحكم ، فهو لا ينجو من الوقوع في أخطر ما كان يهدّد كيان دولته وهو الاقتتال مع منافسيه من أجل المكاسب الشخصية لا من أجل مصالح الدولة . وهذه سمة معروفة في حياة الدول عندما تكون مشرفة على الانهيار .

إن هذا السفّاح ، لم يقدّم لبلادنا سوى المحن والكوارث ، فقد مارس القتل ، والتهجير ، والنهب والسلب ، وأباح حرمات شعبنا

ومقدساته ، وفضلاً عن كونه سفاحاً مجرماً ، كان لصاً كذلك .

غير أن ضحايا جرائمه لم يقضوا إلا من أجل شعبهم ووطنهم ، وإننا لنشعر بالاعتزاز حين نقرأ ما قالوه في آخر لحظة من حياتهم ؛ فهم يعرفون أنهم يموتون شهداء في سبيل العروبة والوطن ، لذلك قابلوا الموت بعزة وشجاعة لا تندّ إلا عن أبناء أمة عظيمة ، وأفضل ما نختم به هذه الصفحات شيء مما قاله المرحوم عبد الغني العريسي مخاطباً بني العرب قبل وضع حبل المشنقة في عنقه بلحظات :

« يابني العرب وياسلالة قحطان ، يانسل الأكارم والأماجد ، وياخلف الأشاوس الصيد ، الذين دوّخوا العالم بعزمهم ، وملكوا الدنيا بعدلهم (. . .) أوجّه خطابي هذا إليكم ، وأنا على شفير هاوية الموت ، وبين براثن الوحش التركي الذي خرّب بلادكم ، ودمر بيوتكم ، ويتّم أطفالكم ، ورمّل نساءكم (. . .) ستسمعون ـ وربما سمعتم ـ بما ترتعد له الفرائص وتقشعر له الأبدان من الفظائع التي يمثلها أبناء جنكيز خان المغولي ، وسلالة تيمورلنك الوحش الضاري في الأمة العربية النجيبة ، لأنهم قرروا إفناء الشعب السوري (. . .) إن قائد الفيلق الرابع جمال باشا الجاسوس الأكبر ، قد عرقل بحيله مساعينا ، وأخّر قيامنا (. . .) نحن الآن نطلب حياتنا من براثن الموت . إن خطتنا منظمة كما يجب ، وستحوذ سورية بالمبشرين بدين الاستقلال العربي (. . .) فيا أخواني الأعزاء المهاجرين في الأصقاع البعيدة عن مظالم الأتراك وجورهم أطلب إليكم باسم القومية الشريفة التي ننتمي إليها أن لا تتقاعسوا ولا تتقاعدوا ولا تتصامّوا عن نداء الوطنية ، والحرية والاستقلال العذب الذي يدعوكم

إلى الاتفاق ، إلى الاتحاد إلى التعاضد إلى الوئام إلى الانضمام والالتفاف لما فيه خيركم وخير بلادكم . . .

وكأنّا بصدى هذا النداء يلقى ترحيبه في مخيّلة الفدائي الأرمني أرداشيس حيث ارتسم فيها ، وهو يتقدم ليقتل جمال باشا السفاح « خيال أخته آني » في أورفة . وكانت في السادسة عشر ربيعاً عندما حكم جمال باشا عليها وعلى من معها بالموت الشنيع . . . » .

مراجـع الدراسـة

1 ـ أوراق فارس الخوري . تنسيق وتعليق . كوليت خوري . دمشق 1989 .

2 ـ ايضاحات في كيفية جلاء الأتراك عن بلاد الشام . جمال باشا الصغير . مطبعة الطنين 1934 .

3 ـ تاريخ الشعب الأرمني منذ البداية حتى اليوم . فؤاد حسن حافظ . القاهرة 1986 .

4 ـ ثورة العرب . أسعد مفلح داغر . طـ 2 . حلب 1989 .

5 ـ الثورة العربية الكبرى . سعيد أمين . المجلد الأوّل . القاهرة د . ت .

6 ـ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . محمد جميل بيهم . دمشق 1957 .

7 ـ العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908 ـ 1914 . توفيق برو ، دمشق 1991 .

8 ـ قلم وزير . تاريخ ما أهمله التاريخ . ابراهيم صالح الشكر . بغداد 1970 .

9 ـ مجلة الضاد . العددان 11 ـ 12 . حلب 1988 .

10 ـ مذكرات جمال باشا . تعريب علي أحمد شكري . نشرت عام 1923 .

11 ـ ملف المجموعة التاريخية المصورة عن الحرب العظمى الأولى .

12 ـ يقظة العرب . جورج أنطونيوس . ترجمة ناصر الدين الأسد وإحسان عباس . طـ 5 . بيروت 1978 .

فهرس عام

ملحق الصور

الجوع في جبل لبنان



منظر من مناظر العائلات الجائعة في جبل لبنان إبان الحرب العامة



السفاح جمال باشا

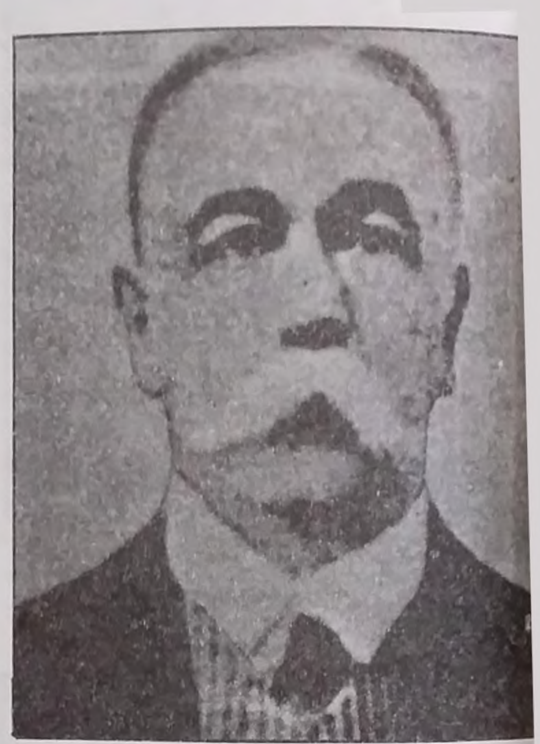


البطلان الأرمنيان بدروس دير بوغوصيان (إلى اليسار) واستيبان زاغيكيان ، اللذان قتلا السفاح جمال باشا في مدينة تفليس عام 1922 ، ثأراً للمليون ونصف شهيد أرمني وللشهداء العرب .



مشهد لجيش الاحتلال العثماني أمام السراي الكبير في بيروت حيث أعدم شهداء السادس من أيار

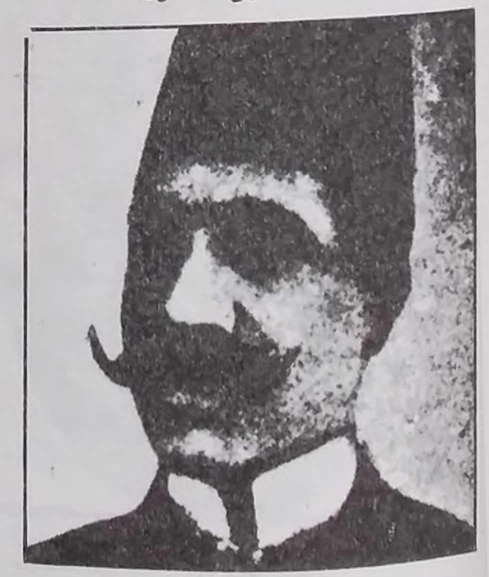
الشهداء العرب الذين أعدمهم جمال باشا



شفيق المؤيد



عبد الحميد الزهراوي



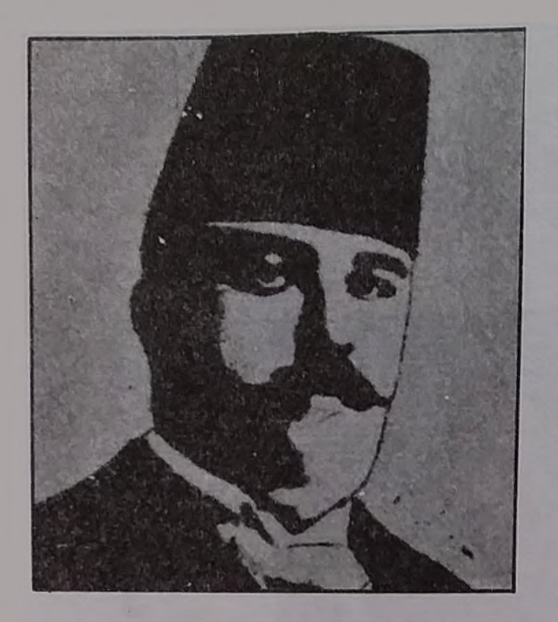
عبد الوهاب بن أحمد الانكليزي



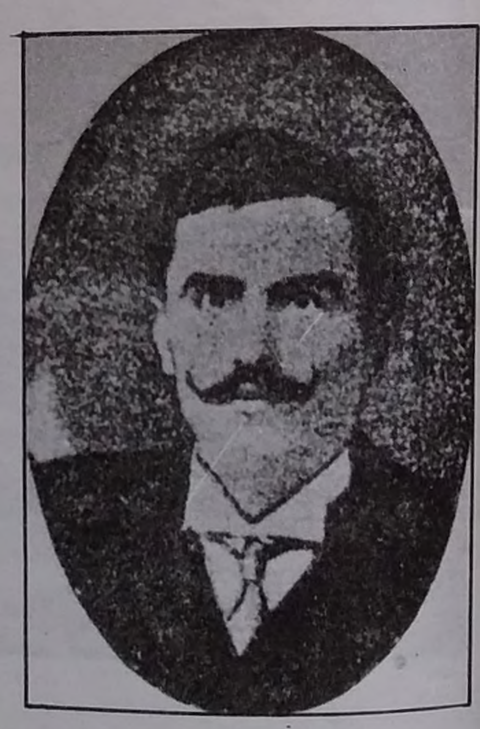
سعيد عقل



شكري العسلي



رشدي الشمعة



توفيق بن أنسطاس زريق



سليم الجزائري

جمال باشا وزير البحرية التركية



تمثل هذه الصورة جمال باشا وزير البحرية التركية على ظهر المدرعة غوبن قبيل الحرب العامة . ويراه القارىء في هذه الصورة وحوله بعض الضباط الألمان وأركان حربه .

جمال باشا في فرنسا



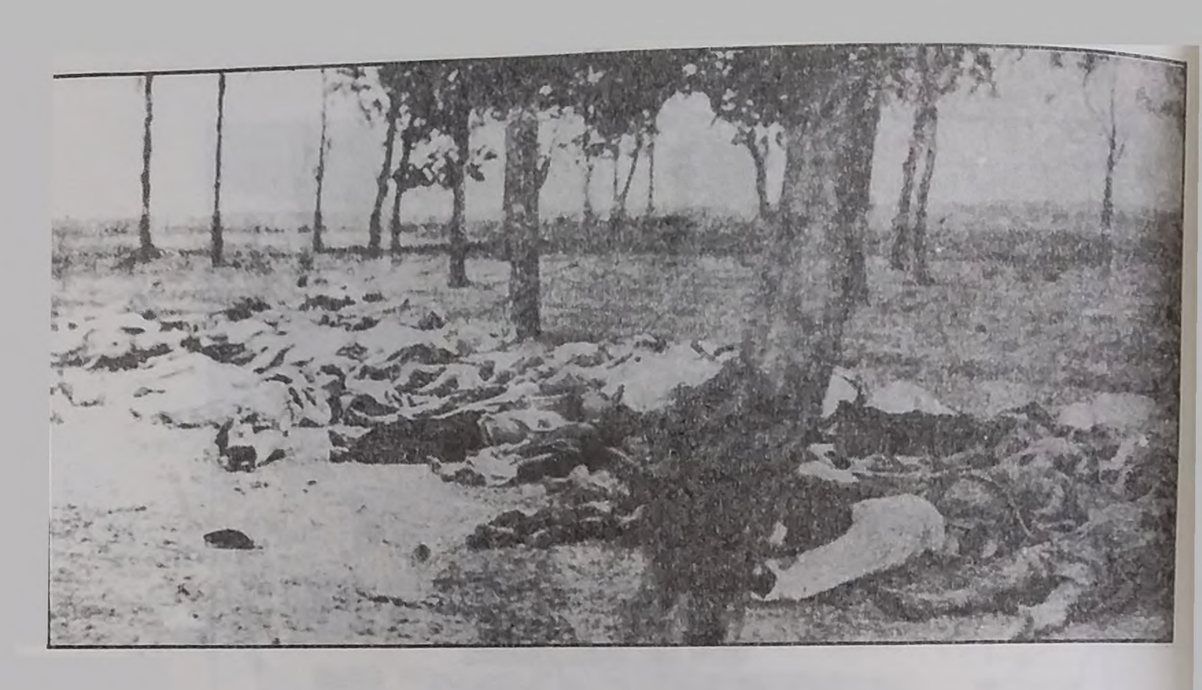
جمال باشا وعزت باشا



جمال باشا قائد الجيش الرابع في
سوريا وفلسطين ، وعزت باشا قائد
الجيش التركي في القوقاس ، عند زيارة الأخير لزميله في بئر السبع



صورة من المجازر الأرمنية





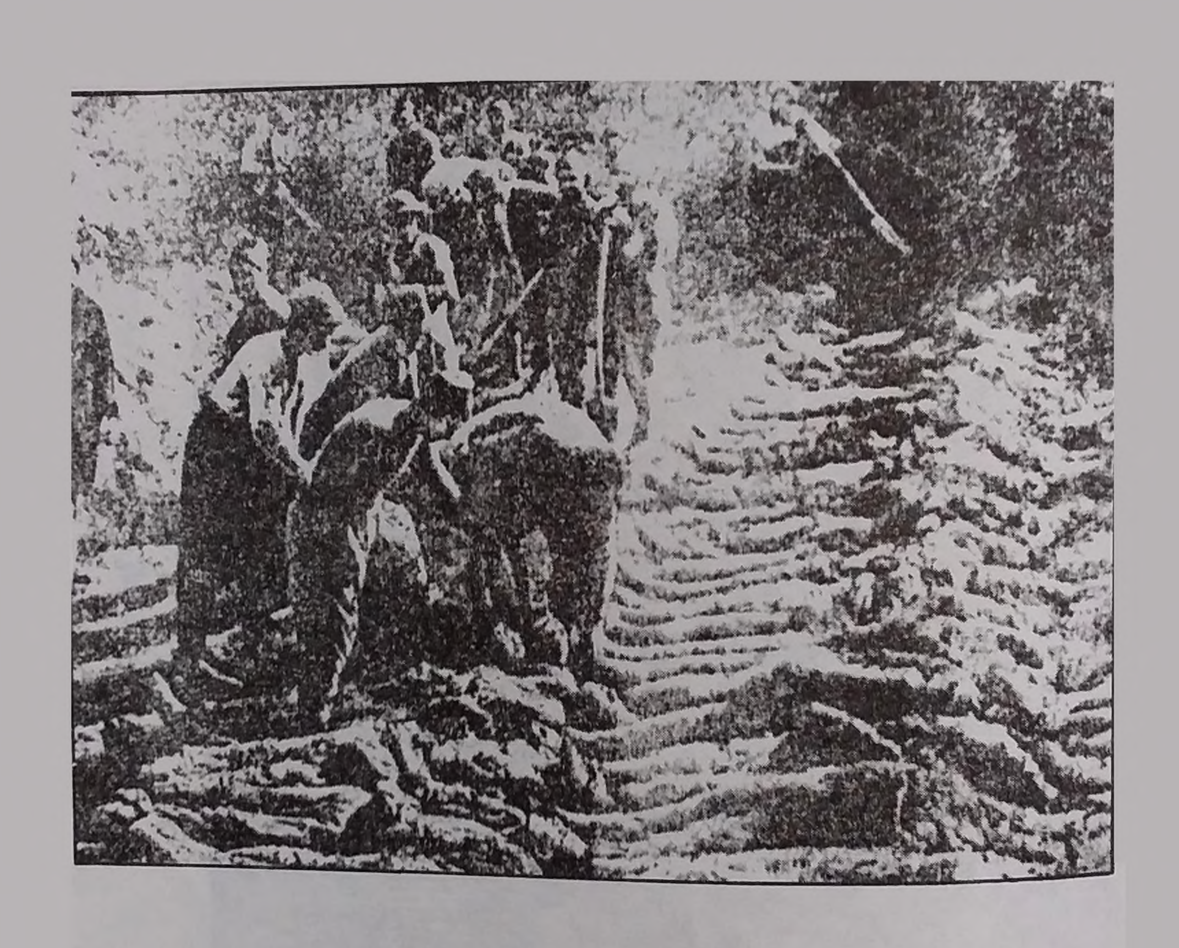
صور من المجازر الأرمنية



صور من المجازر الأرمنية



صور من المجازر الأرمنية



صورة من المجازر الأرمنية



صورة من المجازر الأرمنية



صورة عن المجازر الأرمنية

فهرس الصور

جمال باشا السفاح

جمال باشا السفاح اسم على مسمى ، و صورة راعبة ، لها في الضمير الانساني عامة و الضميرين العربي و الأرمني خاصة بقايا مؤلمة و ذكريات . كان الرجل طاغية في جبلّته ، غدّارا في طبعه ، سفّاك دماء في أصول تركيبته الفيزيولوجية والنفسية ، و قد تصالحت لديه ثلاثة مكونات جعلته أسطورة للحاكم الظالم المستبد : المكون الخاص للشخصية ، و المكون العام للظرف وللعصر ، و المكون الوسيط أو ما يسميه الباحث بفئة الأعوان أو الأخطبوط .

ربما نتسائل عن الد[illegible] التي تحدو بنا اليوم لدراسة هذه الشخصية ، و يرتكز هذا التساؤل على مسائل أساسية و هامة تتعلق بطبيعة التحليل المتناول [illegible] الشخصية ، و بمنظوراته التاريخية و السياسية ، و بمدى ارتباطها بواقع الدولة العثمانية عشية الحرب الكبرى الأولى [illegible]ات الثورة العربية .

عن هذه التساؤلا[illegible] يتصل بعلاقته بالألمان ، و دوره التآمري مع [illegible] لتأسيس الكيان الدخيل ، ومسؤوليته عن مذابح الأرمن ، و مشانق العرب الأحرار ... يجيب الباحث الدكتور نعيم اليافي في هذا الكتاب اجابات تحليلية واضحة ، و يبارك في خاتمته اليد الطهور التي امتدت لتقضي على السفاح ، و تضع نهاية لطاغية مجرم قتل بالسيف فقتل به ، و مضى كما يجب أن يمضي كل أثيم في غير عصر و زمان

دار الحوار للنشر و التوزيع
سورية ـ اللاذقية ـ ص.ب ١٠١٨ ـ هاتف ٢٢٣٣٩
دار الحوار

Designed by Ardo graphic arts - Phone (021) 44 56 73 - P.O.Box 4406 Aleppo - Syria